فلسفة الحرمان

فى أدب البخلاء

دكتور

حلمى حسن أبو العز

أستاذ مساعد، ورئيس قسم الأدب والنقد

فى كلية اللغة العربية بإيتاى البارود

١٤١٦هـ-١٩٩٥م

بسم الله الرحمن الرحيم

أضواء، وظلال

يتراءى السلوك الشاذ دائما، فيما يبدو عليه الفرد خارجاً عن مألوف النهج الاجتماعى، أو الأخلاقى، أو الفكرى، لكل أو لبعض ما تعارفت عليه أو ارتضته وخضعت لمبادئه الأفراد والجماعات في مجتمع ما، أو فى زمن ما.

ومن هنا، فإن ما تخيرناه من الأقوال والأفعال لتلك الجماعة المميزة من البخلاء المرموقين أو المشهورين في العصر العباسى، يعد ترجمة صادقة وتجسيداً حياً لذلك السلوك غير الحميد.

وقد يبدو طبعياً أن نلمس الضيق، أو الألم النفسى في ملامح أو فى سلوك الإنسان المعتدل الطباع إذا ما بدر منه أى فعل يرى به خروجاً عن النهج المألوف لنفسه ولمجتمعه معاً، وربما يدفعه شعور آخر بذلك إلي عدم الاقتناع بكل ما قد يخطر على قلبه من المبررات أو الدوافع، فيبقى حبيس شعوره ذاك إلي أن يطفى عليه شعور آخر بالبهجة أو الرضا النفسى نتيجة فعل أحبه، أو عمل قدم به الخير لسواه.

بينما نجد كل ما يصدر من سلوك أو يبدو من تصرفات لأفراد تلك الجماعة إنما يأتى عن قصد أو رغبة أكيدة في ذيوع أمرهم، أو انتشار أقوالهم وأعمالهم الصادرة عن إيمانهم بها وحبهم لها، حتى يمل قصدهم المحتاج، ويأنف من لقائهم غير المحتاج، وهو ما نرى به

الفارق بين الإنسان المعتدل أو السوى وبين غيره من أبناء المجتمع الواحد، أو الزمان الواحد، ممن كان البخل سجية فيهم، أو ممن صادف الشح والتقتير هوى واستعداداً نفسياً لديهم.

ودون شك فإن هذه الآفة الاجتماعية الخطيرة قد تسللت بين دروب الزمن إلي حياة الأفراد والجماعات من الأجيال القديمة، وظهر فى غير القليل من الآثار الأدبية الممثلة للحياة الجاهلية ما يذم البخل ويبديه حطة وضعة تحول دون سيادة البخيل أو ارتقائه درج العلا مع الآخرين.

ولعل ذلك ما نلمسه في تصريح «الأعلم الهذلى» إذ يقول: (١)

وإن سيادة الأقوام فاعلم لها صعداء مطلبها طويـــل
أترجو أن تسود ولا تعنى وكيف يسود ذو الدعة البخيل

كما كان يتسامى بالجود فاعلوه، بل ويحتالون من أجل الحظوة بحلول ضيف، أو نزول سائل بساحتهم، وهو ما يصوره قول «حاتم الطائى» لغلامه في إحدى ليالى الشتاء العاصفة(٢):

أو قد، فإن الليل ليل قــر والريح يا موقد ريح صــر
عسى يرى نارك من يمـــر إن أجلبت ضيفاً فأنت حــر

(١) انظر : الحياة العربية من الشعر الجاهلى- د/ أحمد الحوفى- ص ٣٠٤ (الطبعة الخامسة) دار نهضة مصر.

(٢) العقد الفريد - لابن عبد ربه - جـ١ ص ٢٤٢ طبعة دار الكتب العلمية / بيروت.

وهذا « عروة بن الورد » يزهو بجوده، ويعير أحد البخلاء الذين عابوا عليه نحافة جسده، فيقول : (١)

إنى امرؤ عافى إنائى شركـــــه
وأنت امرؤ عافى إنائك واحـــد (٢)
أتهزأ منى أن سمنت، وأن تـــرى
بوجهى شحوب الحق، والحق جاهد
أقسم جسمى فى جسوم كثيـــرة
وأحسو قراح الماء والماء بـــــارد

وحتي الصعاليك المخضرمين، وجدناهم يستحلون مال البخلاء، ويترفعون عن سؤالهم أو طلب الحاجة منهم، إذ يقول الأحيمر السعدى (٣):

وانى لأستحيى من اللـــه أن أرى
أجرر حبلا ليس فيه بعيـــــر
وأن أسأل الجبس اللئيـــم بعيـــره
وبعران ربى في البلاد كثيـــر

كما يروى عن «عثمان الخياط» قوله :«ما سرقت جاراً وإن كان عدواً، ولا كريما، ولا كافأت غادراً بغدره». فهو يرى أن حرصه على سرقة مال البخيل أحد جوانب «الفضل» في سرقاته.

---

(١) ديوان عروة بن الورد ص ٧ طبعة بيروت، وانظر «المفضليات» جـ١ ص ٣٨٢ تحقيق على البجاوى /الفجالة.
(٢) العافى : طالب المعروف أو الرزق من الناس والدواب والطير.
(٣) معجم الشعراء للمرزبانى - ص ٣٧ تحقيق المستشرق الدكتور سالم الكرنكوى.

ومع أن آيات الجود فى قصائد القدماء كثيرة كما نعرف، وأن الكرم يعد أبرز سمات العرب السابقين وأعلى الأصوات في مدائحهم، فإن هذا لا يعنى افتقادهم لصفة البخل أو ندرة هذه الآفة بينهم، فللبخل كما للجود في كل العصور والأجيال ذووه، غير أن إحدى هاتين الخلتين قد تغلب نقيضتها، إذ قد يهيأ لها من الأسباب فى أحد العصور أو بين جيل بعينه ما يبرز ملامحها عن الأخرى، ولكنهما فى كل الأحوال متلازمان، بل وباقيان ببقاء الناس والحياة.

فكم ذمت أفراد بل وقبائل فى العصر الجاهلى الذى ساد فيه نعتهم بالجود كما أسلفنا، وكما يتضح لنا - على سبيل المثال لا الحصر- فى قول «المتلمس»: (١)

وحبس المال خير من نفاد ... وضرب فى البلاد بغير زاد
وإصلاح القليل يزيد فيه ... ولا يبقى الكثير مع الفساد

وفي قول الحطيئة هاجيا الزبرقان بن بدر وقبيلته ومفضلا بنى أنف الناقة : (٢)

ألم أك جاركم فتركتمونى ... لكلبى في دياركم عواء
وآنيت العشاء إلى سهيل ... أو الشعرى فطال بي الأناء(٣)
ولما كنت جارهم حبونى ... وفيكم كان لو شئتم حباء

---

(١) العقد الفريد - لابن عبد ربه - جـ٧ ص ١٩.

(٢) ديوان الحطيئة ص ٩٨ تحقيق : نعمان طه- طبعة الحلبى ١٩٥٨.

(٣) آناه إيناء : أخره عن وقته ، يقال : لا تؤن فرصتك أى لا تؤجلها.

وفى قول ربيعة بن عبد الرحمن الرقى مادحاً يزيد بن حاتم الأزدى، وهاجياً يزيد بن أسيد السلمى : (١)

لشتان ما بين اليزيدين فى الندى
يزيد سليم، والأغر بن حاتم
فهم الفتى الأزدى إتلاف ماله
وهم الفتى القيسى جمع الدراهم
فلا يحسب «التمتام» أنى هجوته
ولكننى فضلت أهل المكارم (٢)

وما القول فى بخل الأفراد أو القبائل بقليل فى أشعار الجاهليين، ولكننا نؤثر الإشارة فقط أو الرمز باللائق من النماذج. تثبيتاً لقولنا في كل مقام على حدة.

ومع أن الكرم أو الجود بالمال، أو الطعام، أو الشراب، أو الكساء، أو حتى بالكلمة الطيبة كان من أهم المبادئ والدعامات فى بناء صرح الدولة الإسلامية الأولى كما تجسده لنا الكثرة من سلوك الرواد المسلمين، حيث كان الإيثار والتقرب إلى الله بالجوع، وحرمان الأهل من الطعام من أجل رد جوعة ضيف، أو إكرام من نزل بهم من الناس، كما حدث لذلك الرجل الذي جهده الجوع، ففطن له رجل من الأنصار، فلما أمسى أتى به منزله، وقال لامرأته: هل لك أن نطوى ليلتنا هذه لضيفنا؟ فقالت : نعم . قال الأنصارى :

---

(١) العمدة - لابن رشيق - جـ٢ ص ١٧٣ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد - طبعة بيروت ١٩٧٤.
(٢) التمتام : كثير التمتمة أي أنه يعجل فى كلامه ولا يبينه.

إذا قدمت الطعام فادنى إلي السراج كأنك تصلحينه فأطفئيه، ففعلت : وجاءت بشريدة كأنها قطاة[١]، فوضعتها بين أيديهما، ثم دنت إلي السراج كأنها تصلحه فأطفأته: فجعل الأنصارى يضع يده في القصعة ثم يرفعها خالية.

فأطلع على ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما أصبح الأنصارى، صلى مع رسول الله الفجر، فلما سلم، أقبل الرسول على الأنصارى وقال له : «أنت صاحب الكلام الليلة»؟ ففزع الأنصارى، وقال : أى كلام يارسول الله؟ قال الرسول : كذا وكذا - ما قاله الأنصارى لامرأته البارحة - قال الرجل : كان ذلك يارسول الله . قال: «فوالله لقد عجب الله من صنعكما الليلة»[٢].

وكما حدث فى تنازل الأنصار للمهاجرين بكل الحب والرضى عن أقرب وأحب الأشياء إلي أنفسهم، أملا في التقرب بعطائهم هذا إلي الله ورسوله.

وكما نجده أيضا فى دعوته عليه السلام إلى بذل المال، وحثة علي تنقية القلوب بالبعد عنه وعدم الاشتغال به، وذلك حين قال له رجل : يارسول الله؛ إنى أكره الموت. فقال له عليه السلام :«ألك مال»؟ قال الرجل : نعم. قال الرسول : «قدم مالك، فإن قلب كل امرئ عند ماله».

---

(١) القطاة : واحدة القطا، وهو نوع من اليمام يؤثر الحياة فى الصحراء.

(٢) عيون الأخبار لابن قتيبة - جـ٣ ص ٢٣٥ طبعة دار الكتاب العربى / بيروت.

وحين قال الحسن والحسين رضى الله عنهما لعبد الله بن جعفر: إنك قد أسرفت فى بذل المال. قال : يأبى وأمى أنتما، إن الله قد عودنى أن يتفضل على، وعودته أن أتفضل علي عباده، فأخاف أن أقطع العادة فيقطع عنى.

ومع أنه لا حصر لمثل هذه الألوان من الإيثار، والإعطاء، والدعوة إليهما فى صدر الدولة الإسلامية، غير أن هذا المجتمع الإسلامى نفسه لم يسلم من آفة البخل والتقتير بين أفراده.

ولعل هذا ما يتمثل لنا - في أبسط صوره- فى أقوال وأعمال من امتنعوا عن أداء الزكاة المفروضة عليهم، إذ بدا حرصهم على المال وشحهم به سر ارتدادهم عن الدين وارتضائهم الخروج من ساحته، حتى أصبحوا يدافعون عنه بأرواحهم، ويستهينون بالموت فى سبيل حمايتهم له وذودهم عنه، مما دفع الخليفة الأول رضى الله عنه إلي مواصلة حربهم وعدم العفو عنهم، انصياعاً لمبادئ التشريع السامية، وتطهيرا للروح الإنسانية المؤمنة بتطهير مال الله من أدران التقتير، وشوائب الضعف الإيمانى، بإخراج حق الفقراء منه.

وما تكاد تنصهر تلك الجموع البشرية إثر الفتوحات الإسلامية على أديم الدولة الجديدة، حتى تتراءى الحياة الاجتماعية في صور شتى من العادات والتقاليد والسلوكيات لم يكن للعرب عهد بها من قبل.

ولقد كان هذا أو قريباً منه شأن الدولة الإسلامية أيضا في عصر بنى أمية، إذ امتدح بالجود، كماذم بالبخل العديد من الأفراد- الخلفاء والأمراء والولاة: وذوى السعة من المال- وبذا الشئ نفسه فى أقوال شعراء هذا العصر عن القبائل، والفرق والأحزاب الدينية، وهى

كثرة يحول ضيق المقام هنا عن تناولها، أو حتى إجمالة لمفرداتها، ولو بمثال لكل منها.

ومن هنا فسوف اكتفى بما يفرضه المقام من نماذج «أموية» بين غيرها من نماذج، أو دلالات ورموز «عباسية» فيما يلى من الفصول في عملنا هذا

اما العصر العباسى فقد تميزت فيه كثرة هائلة من الأفراد والجماعات بألوان من البخل وفنون من الحيل في الشح والتقتير لم تماثلها فى سابق العصور أمارات فى البخل، ولا دلائل فى حرمان أنفسهم بله المحتاجين منهم.

ومن أبرزهم تلك الجماعة التي تخيرناها نماذج لعصرهم هذا، إذ أصبحوا يمثلون بسلوكهم ظاهرة مزرية ومتفشية فى كثير من رحبات الدولة الإسلامية آنذاك ولعل هذا ما دفع أبا العتاهية إلي قوله لصديقه: «مخارق»: (١)

فاضرب بطرفك حيث شئـــ ت، فلن ترى إلا بخيـــلا

فقال له «مخارق»: أفرطت يا أبا إسحاق، قال: قديتك، فأكذبنى بجواد واحد. وهو ما تجده أيضا فى قول ابن أبى أحازم: (٢)

وقالوا: لو مدحت فتي كريما فقلت: وكيف لى بفتى كريم
بلوت، ومر بى خمسون حولا وحسبك بالجرب من عليـــم

---

(١) ديوان أبى العتاهية ص ٣٨٣- تقديم كرمه البستاتى - دار صادر / بيروت ١٩٨٠.
(٢) العقد الفريد جـ١ ص ٢٣٦.

فلا أحد يعد ليوم خيـــر   ولا أحد يعود على عديـم[1]

ويذكر ابن عبد ربه لأحد معاصريه قوله :[2]

ذهب الكرام، فلا كـــرام   وبقى الفطاريف اللئـــام
من لا يقيل، ولا ينيــــل، ولا يشم له طعـام

ويخاطب جحظة البرمكى - ٣٢٤هـ امرأته واصفاً حاله وما أضحى عليه من البؤس وضيق العيش نتيجة سوء التقدير له ممن ظل يخدمهم طوال عمره من العباسيين ولم يجن منهم ما يستر حياته أو يقيه شر الحاجة، فيقول :

تعجبت إذ رأتنى فـوق مكســور
من الحمير، عقير الظهر، مضرور
فقلت : لا تعجبى منى، ومن زمـن
أنحى على بتضييـق وتقتيـر
بل فاعجبى من كلاب قـد خدمتهم
تسعين عاماً بأشعارى وطنبـورى
ولم يكن فى تناهى حالتـى بهـم
حر يعود على مالــى بتغييـر

وهي كما نري ألوان أو صور من واقع الحياة تمثل ظاهرة التفشى لآفة البخل فى هذا العصر، وعلى الرغم مما حفلت به كتـــب الأدب،

---

(١) يعود : يتكرم. العديم : الفقير.
(٢) العقد الفريد جـ٧ ص ٢١١/٢١٢.

ودواوين الشعراء فى العصر نفسه ، من ألوان الجود وضروبه الهائلة آنذاك.

وعلي كل، فلا أخفى أننى كنت أشعر بالنشوة كلما أتيحت لى إحدى فرص القراءة لبعض ما يحفل به أدبنا العربى من طرف هذه الجماعة ونوادرها، حتى وقع تحت بصرى بيتان من الشعر «لابن الرومى»، فكانا مدخلى إلى هذا البحث، وهما قوله: (١)

إذا لم يكن عندى سوى ما يكفنى
فشحى عليه مثل شحى على عرضى
لأنى متى أتلفته احتجت حاجة
تزيل مصون العرض فى طلب القرض

فتوقفت أمامهما، حيث تكشف لى معناهما عن لون من فلسفة البخل، جسده مفهوم «ابن الرومى» لقيمة المال، واعتقاده أن في الشح به شحا بالعرض، وحصنا منيعا لحمايته.

ودون شك فقد كان لإشراقة هذه الخاطرة فى ذهنى أثرها في نمو رغبتى تجاه القيام بهذا العمل، والبحث عن هذا اللون الطريف من المفاهيم في تراثنا الزاخر بألوان الفنون ، وما شفت عنه أقوال هؤلاء البخلاء من الإبداعات أو القدرات الفكرية المميزة لهم من خلال منظورهم أو رؤيتهم للمال ودوره فى الحياة.

---

(١) «ابن الرومى» حياته من شعره - لعباس العقاد- ص ١٣٤ الطبعة السادسة.

وفي إطار محدود بالتركيز والإيجاز حرصت على إجلاء الهدف وتوضيح الغاية في هذا العمل تحت مسميات أربعة بدت بمثابة فصول أو بحوث ملائمة للمقام.

وقد دار أولها حول : «صفات البخلاء وشمائلهم» وذلك للتعريف بهم، والكشف عن ملامحهم من خلال أقوالهم.

كما دار ثانيها حول :«الدوافع النفسية للحرمان» لإبراز تلك المقومات التى أدت إلى هذا السلوك الشاذ ، من، وبين أفراد هذه الجماعة.

أما ثالثها فقد دار حول :«حيل الحرمان» أو سبل التخلص من الإعطاء أو الإنفاق ولقد كانت هذه المسميات أو الفصول السابقة بمثابة درج الوصول إلى الفصل الرابع والأخير، وهو :«فلسفة الحرمان»، حيث تكشفت من خلاله ملامح ذلك المنهج الغريب والسلوك غير المألوف لمن دار حولهم عملنا هذا.

وكم أسعدنى ما حصلته في هذا المقام من ثمار القول، وجنى التجربة لتلك الفئة من البخلاء في العصر العباسى، أو ممن استطاعوا أن يسجلوا بأقوالهم وأعمالهم تاريخاً لهم، بل تراثا جليلا من فن الحرص وإبداع القرائح في حيل الحرمان، وحسن التعليل، والتبرير لإغلاق منافذ النوال أمام قاصديهم وراغبى العطاء منهم، حتى جعلوا من البخل حكمة، ومن الحرمان فلسفة ومنهجاً، ومن الشح والتقتير رمزاً للإلهام والصواب، ودلالة على عمق الرؤية ونفاذ البصيرة لشتى الأمور فى دروب الحياة.

وهكذا وجـدت نفـسى أمـام لون فنى طريف ونادر فى أدبنا العربى - المنثور والمنظوم- يدفـعنى إلى الكتـابة، ويبلور لى جـدارة الكشف عنه والإسـهـام به في عـلاج وتنقيـة مجتـمعنا العـصرى من أخطار تلك الآفة المزرية بذويها في مختلف العصور، وبخاصـة أمام البعض ممن تستهويهم طباع تلك الفئة الجامعة المانعة. كى يدركوا عن كـثب بشـاعـة هذا السلوك، ويتـبين لهم مـدى خطورة دور المال فى الحياة، وقدرته على وهن الأخلاق، وتقويض صروح القيم والمثالية بل والمبادئ الدينيـة أيضـا إذا مـا تفشت فى مـجتـمع مـا أشباح الفقر، وعـمت الأرزاء وتسـربت إلي القلوب أهوال الخـوف من كل ذلك أو بعضه فى قادم الأيام.

شمائل، وصفات

حسب الباحث أو الراغب في سبر اغوار هذه الجماعة وفقه سلوكها، أن يمعن النظر فى أقوالهم ومختلف معاملاتهم مع الآخرين، ففى ذلك ما يكشف بوضوح عن ملامحهم، وما يميزهم بغير القليل من الصفات عمن سواهم، وما ينأى بهم عن المماثلة بغيرهم من ذوى الفطر الإنسانية المعتدلة.

ولعل من أبرز صفات هذه الجماعة أو أخص شمائلهم ما تراءى لنا فى : ضعف الجانب الدينى عندهم، وما غلب عليهم من سوء الظن تجاه الآخرين، بالإضافة إلى ما يتمتعون به من : حدة الذكاء، وصدق الحدس، وعمق الدراية بأدق المنافع لأقل الأشياء قيمة وقدراً، واهتبالهم الفرص دائما لصالحهم، وملاحقاتهم بالمن والأذى لمن «تفلت» علي كره منهم الإحسان إليه.

ومع أن مفردات هذه الصفات التى أجملناها ليست قصراً على هذه الفئة دون سواها من الناس، غير أن وجودها شبه مجتمعة في كل من خصصناهم بالذكر أو ألقينا الضوء على سلوكهم مع الآخرين تكاد تبديهم متفردين بها.

ووفاء بالتزامنا الإيجاز فى هذا العمل، فقد أغفلت أو تعمدت إغفال الكثرة الهائلة من النماذج المؤكدة لما أشرت إليه من صفات هذه الجماعة مكتفيا بمجرد الرمز إلي كل مفردة منها بما لا يتجاوز الاثنين أو الثلاثة من الأحداث أوالسلوكيات الموثقة فى كتب الأدب.

حيث لا تدعو الحاجة إلى أكثر من ذلك، كما لا تسهم الكثرة منها بغير ما أسهمت به القلة، من : وضوح الرؤية وبلوغ الهدف الذى ننشده في عملنا هذا.

ومن هنا، فحسبنا دلالة على ضعف الجانب الدينى عندهم، ما نجده فى : نهرهم السائل، وتعمدهم حرمانه بغير الحسنى، وعدم إعطائه مهما بلغت حاجته إلي القليل من العطاء.

فمما يذكره الجاحظ [١] أن ابن «جذام الشبى» [٢]. كان يلح بشدة على صاحبه : عبد الله بن المقفع، ويلاحقه بطلب الذهاب معه إلى منزله داعياً إياه إلى مشاركته الغذاء: حتى قبل ابن المقفع بعد رفض شديد، إذا استحيا منه بعد قوله :«جعلت فداك، أنت تظن أنى ممن يتكلف وأنت تشفق على، لا والله إن هى إلا كسيرات [٣] يابسة، وملح، وماء الحب.

يقول ابن المقفع :«فظننت أنه يريد اختلابى [٤] بتهوين الأمر عليه ، وقلت : إن هذا، كقول الرجل : يا غلام، أطعمناكسرة وأطعم السائل خمس تمرات وسمناه «أضعاف ما وقع اللفظ عليه». وما أظن

---

(١) انظر «البخلاء»- للجاحظ - ص ١٦١ ومابعدها، طبعة دار الهلال/ بيروت ١٩٨٣، والعقد الفريد - لابن عبد ربه - جـ٧ ص ٢٠٧.

(٢) ابن جذام الشبى : أحد المشهورين بشدة البخل وكثرة المال في العصر العباس الأول.

(٣) كسيرات : فضلات.

(٤) اختلابى : يريد الاحتيال على .

أحداً يدعو مثلى إلى «الخريبة» [١] من «الباطنة» [٢] ثم يأتيه بكسيرات وملح كما يقول.

فماصرت عنده، وقرب إلي الطعام، إذ وقف سائل بالباب، فقال : أطعمونا مما تأكلون أطعمكم الله من طعام الجنة.

قال ابن جذام للسائل: بورك فيك، ولم يعطه شيئا. فأعاد السائل القول، فأعاد ابن جذام قوله السابق.

فلما أعاد السائل الكلام، قال له ابن جذام: اذهب - ويلك - فقد رد عليك. فقال السائل : سبحان الله، ما رأيت كاليوم أحداً يرد من لقمة والطعام بين يديه. فقال ابن جذام: اذهب ، وإلا خرجت إليك والله فدققت ساقيك. قال السائل : سبحان الله، ينهى الله أن ينهر السائل، وأنت تدق ساقيه ؟ يقول ابن المقفع :«فقلت للسائل: اذهب وأرح نفسك، فإنك لو عرفت من صدق وعيده مثل الذى أعرف من صدق وعده ما وقفت طرفة عين بعد رده إياك».

ويذكر الجاحظ أن هذا كان شأن «الداردريش» [٣] مع كل من يقف أمامه سائلا إعطاءه أى شئ، حتى إن جاره حدثه يوماً قائلا له : ما أبغض إليك السؤال. قال : أجل. عامة من ترى أيسر منى، وكل هؤلاء لو قدروا على دارى لهدموها، وعلى حياتى لنزعوها، انا لو

---

(١) الخريبة : موضع بالبصرة كما يقول ياقوت في «معجم البلدان» مادة «خرب» جـ٢ ص ٣٦٣ طبعة دار إحياء التراث بيروت ويقال إنها «الحربية» بالحاء، وهى محلة ببغداد بناها حرب بن عبد الله قائد الخليفة المنصور.

(٢) الباطنة : مجتمع من الأسواق والبيوت بين البصرة والكوفة.

(٣) «الداردريش»: أحد البخلاء المشهورين ممن عايشهم الجاحظ.

طاوعتهم كلما سألونى كنت قد صرت مثلهم منذ زمان، فكيف تظن بغضى يكون لمن أرادونى على هذا ؟(١).

فتأمل ، كيف تسرب الحرص على المال إلي قلوب هذه الجماعة حتى حال دون الحرص علي مبادئ الدين السمحة؟ وكيف شغلهم حب المال الزائل والاستزادة منه، عن نعيم الآخرة الدائم؟ وكيف آثروا حرمان المحتاج، دون خشية من صاحب الإعطاء ومقسم الأرزاق؟ ثم كيف أساءوا الظن بالناس إلي هذا القدر من الكراهية حتى وهموا فى السائلين تعمدهم سلب أموالهم، ونزع حياتهم، وهم لم يطلبوا منهم غير ما يسدون به رمقهم ، أو يسترون به عوراتهم ؟

ثم ألاترى معى أنهم قد أساءوا الظن بالله قبل أن يسيئوا الظن بالناس، اذ جهلوا أن دوام العطاء من الله رهن بدوام العطاء للناس، وإلا أصبح عطاء الله سبحانه وبالاً عليهم.

ومن هنا فإننا نظن ظنا أن فلسفتهم فى الحرمان، أو التعاسهم التبريرات الخرقاء لمنعهم العطاء إنما هو لون من ابتلاء الله يكشف به غفلتهم عن أبسط مبادئ الدين وتعاليمه الإنسانية القائمة على التعاون والبر، وقضاء حوائج المحتاجين.

ولعل من أعجب الأقوال فى هذا المقام، ما يحدثنا به محمد بن الجهم عن حاجة الصديق إليه، وواجبه تجاه تلبية رغبته، إذ يقول : «من حبك لصديقك، وضنك بمودته : ألا تبذل له ما يغنيه عنك، وأن تتلطف له فيما يحوجه إليك؛ فمن أغنى صديقه فقد أعانه على

---

(١) البخلاء - للجاحظ - ص ١٣٣.

الغدر، وقطع أسبابه من الشكر، والمعين على الغدر شريك الغادر، كما إن مزين الفجور شريك الفاجر»[١].

فانظر إلى ما تشف عنه نفسية «ابن الجهم» حتى تجاه الأخلاء والأصدقاء، وكيف أنه يرتضى هذا النهج الذميم، الذى يجعل من الوفاء غدراً، ومن قضاء الحاجة للصديق هجراً، ومن تلبية رغبته والإبقاء على مودته فجوراً وإثما.

إن هذا اللون من الفلسفة أو الحكمة من الحرمان تبدو في نظرنا خرقاً لنواميس الاعتدال والمألوف بين الأسوياء من البشر، وجوراً فى حق أقرب الناس إلي الإنسان وداً، وأسرعهم إليه عوناً، وهو ما نراه قصرا على تلك الفئة الشاذة في كل المجتمعات والعصور.

وإذا كان الشئ بالشئ يذكر، فإن ما أثبتناه لابن الجهم في العبارة السابقة يذكرنا في المقابل بما قاله يحيى به طلحة، حين قالت له زوجه :«ما ألأم أصحابك؛ إذا استغنيت لزموك، وإذا أعسرت تركوك». فقال لها يحيى :«هذا من كرم أخلاقهم، يأتوننا في حال القوة منا عليهم، ويفارقوننا في حال الضعف، منا عنهم».

أليست هذه فلسفة أيضا ، وإن بدت من لون مغاير من فكر مختلف، ومن فؤاد طعم الخير ووعى عظمة الحب في الله فترجمها في سلوكه مع الآخرين؟

ثم لنعد إلي حيث كنا مع بعض الصفات «والفلسفات» لأصحاب تلك النزعة المذمومة، حيث يقع صديق هو : أبو عمران

---

(١) العقد الفريد - لابن عبد ربه -جـ٦ ص ١٩٧.

(موسى) [١] تحت طائلة التشهير والملاحقة بالمن والأذى من صديقه : «أبى الهذيل» [٢] بعد أن ألح الأخير على «أبى عمران» قبول دجاجة منه على سبيل الهدية.

وكانت هذه الدجاجة - كما يقول شاهد العيان :«الجاحظ»- دون ما يليق، أو ما يتخذ لأبى عمران وأمثاله، ولكن أبا عمران، بكرمه وحسن خلقه أظهر التعجب من سمنها وطيب لحمها.

فقال له أبو الهذيل: وكيف رأيت يا أبا عمران تلك الدجاجة؟ قال أبو عمران - مجاملا إياه - كانت عجبا من العجب.

فيقول أبو الهذيل: وتدرى ما جنسها؟ وتدرى ماسنها؟ فإن الدجاجة إنما تطيب بالجنس والسن. وتدرى بأى شئ كنا نسمنها؟ وفى أى مكان كنا نعلفها؟.

يقول الجاحظ : فلا يزال أبو الهذيل في هذا ، والآخر يضحك ضحكا نعرفه ولا يعرفه أبو الهذيل: إذ لم يكن يغفل عن ذكر هذه الدجاجة كلما التقى بأبى عمران فإن جمعنا مكان، وتطرق الحديث فيه إلى طعام وذكرت فيه دجاجة ، قال أبو الهذيل: أين كانت يا أبا عمران من تلك الدجاجة ؟ فإذا ذكرت بطة، أو عناق [١]، أو جزور، أو بقرة في مجلس آخر يجمعه بموسى، فإنه يقول له : فأين تكون كل

---

(١) موسى او مويس بن عمران : كان معتزليا من أصحاب النظام : كما كان واسع العلم في الكلام والفتيا.

(٢) أبو الهذيل : أحد الأثرياء المشهود لهم بالإمساك والبخل الشديد، وكان له مع الجاحظ مواقف عدة.

(٣) العناق : الأنثى من أولاد المعز والغنم فى حين الولادة إلى تمام الحول.

واحـدة من هذه بين مـشـيـلاتهـا من تلك الدجـاجـة في الدجـاج؟ وإن استحسن أبو عـمران شيئا من الطير أو البهائم، قال له أبو الهذيل : لا والله، ولا تلك الدجاجة. وإن ذكروا في مجلس عذوبة الشحم، قال أبو الهذيل: عذوبة الشحم في البقر، والبط، وبطون السمك، والدجاج، ولاسيما ذلك الجنس من الدجاج.

وإن ذكروا ميلاد شئ، أو قدوم إنسان في مجلس يجمعهما، قال أبو الهذيل لصاحبه : كان ذلك بعد أن أهديتها لك بسنة، وما كان بين قدوم فلان وبين «البعشة» [1] إلا يوم. حتى كانت تلك الدجاجة مثلا فى كل شئ، وتاريخا في كل شئ» [2].

ولا جدال فى أن هذه الهدية «التاريخية» كانت الأولى والأخيرة أيضا فى حياة أبى الهذيل، أو كبش الفداء، الذى قدمه قرباناً يحفظ به كل ما كان لديه من أموال أو متاع، ليس لأبى عمران وحده، وإنما لكل من كان يتعمد أبو الهذيل أن يسمعهم حديثه مع أبى عمران عن تلك الدجاجة كى يعلم الجميع أن هذا هو شأنه مع أقرب الناس إليه، فلا يخطر ببال أحدهم أن يتعرض لمجرد سؤاله عن شئ بله قبول شئ منه.

كما حدث لأبى عمران وإيقاعه فى شرك تلك الدجاجة «المميزة» عن بنى جلدتها فى ذلك الزمان.

ثم هل ترى معى أن هذا اللون القبيح من المن والأذى فى أقوال أبى الهذيل لم يشف عن قصده تجاه هذه السوءة الدينية قدر ما شف

---

(١) البعثة : يقصد بها اليوم الذى بعث بها إليه.

(٢) البخلاء - للجاحظ - ص ١٣٥ تحقيق طه الحاجرى.

دهائه وسوء طويته، وسعة حيلته فى قطع وشائج الود والمحبة بين الأصدقاء من أجل الحرص على المال ؟

وأكاد لا أجانب الحقيقة حين أقول : إن الذكاء أو توقد القريحة يبدو قاسماً مشتركا بين كل الأفراد في هذه الجماعة، وأن ذلك ينعكس بالتالي علي ما نجده في معاملاتهم للناس من صدق حدسهم وقوة فراستهم.

ولعلك واجد هذا بيسر في حوار :«ثمامة بن أشرس»[١] مع سائل قال له يوماً : إن لى إليك حاجة ؟

فيبادره ثمامة بقوله : وأنا لى إليك حاجة ؟

فيقول السائل : وما حاجتك إلى ؟

يقول ثمامة : لا أذكرها حتى تضمن قضاءها.

فيقول السائل : قد فعلت. فما حاجتك ؟

يقول ثمامة : إن حاجتى إليك ألا تسألني حاجة.[٢] فانصرف عنه الرجل دون سؤال، ودون أن يحظى بما يشفى نفسه من جواب.

ويطلب منه صديق أن يقرضه مالا، وأن يؤخره فى قضائه، فيرد عليه ثمامة قائلا: هاتان حاجتان، وأنا أقضى لك إحداهما. فيقول الرجل : قد رضيت. يقول ثمامة : أنا أؤخرك ما شئت ولا أسلفك.

وهذا «سليمان الكثرى»[٣] يتخذ من قلة الضحك وشدة القطوب أو العبوس فى وجه كل من يلقاهم وسيلة ينأى بها عن سؤال

---

(١) ثمامة بن أشرس : أحد زعماء المعتزلة، وقد أوذى فى أيام الرشيد، واستطاع فى عهد المأمون أن يصبغ الدولة صبغة اعتزالية.

(٢) العقد الفريد جـ٧ ص ٢٢١.

(٣) الكثرى : كان من أشد الناس بخلا فى العصر العباسى.

ذوى الحاجة منه، وعندما يسأل عن سبب رؤيته هكذا، يقول :«إن الذى يمنعنى من الضحك، أن الإنسان أقرب ما يكون من البذل إذا ضحك وطابت نفسه»(١).

فكل من «ثمامة» و«الكثرى» يبدوان وكأنما قد أعداً لكل سؤال جوابه ولكل موقف ما يلائمه ويتفق معه من قول.

وهو ما لانجده لدى الكثيرين ممن لم تهيئهم للمماثلة بهم دقة النظر إلى المال. وعمق المعرفة بنفعه.

ومما يدور فى فلك هذا المعنى أيضا، ما يقوله «ثمامة بن أشرس» عن «محمد ابن الجهم»(٢) بأنه :«لم يطمع أحداً فى ماله، إلا ليشغله عن الطمع فى غيره، ولا تكلم في حاجة، إلا ليلقن المسئول حجة المنع، ويفتح على السائل باب الحرمان»(٣).

ففى قوله كما نرى ضرب من الذكاء يقصد به التمويه على السائل وثنيه عن مقصوده بالسؤال وهو المال، ولاشتغال الفكر بغيره، حتى يحكم الإغلاق لمنافذ الرجاء، ويتمكن من قطع أسباب الوصول إليه.

---

(١) البخلاء - للجاحظ - ص ١٦٤ طبعة دار الهلال - بيروت تقديم د/ عباس عبد الستار.

(٢) محمد بن الجهم : تربى في ظل البرامكة فنسب إليهم، وكان يحضر مجالس المأمون ويجادل الزنادقة، وكان الجاحظ يعده من فلاسفة المتكلمين، كما كان على علم بالنجوم والهندسة، وكان من البخلاء المشهورين.

(٣) العقد الفريد جـ٦ ص ١٧٧.

كما يعد اهتبال هذه الجماعة للفرص واغتنامهم أقل الفوائد للأشياء بله أكثرها مع تباينها واختلاف أوجه النفع بها من أخص مميزاتهم وأكثرها شيوعاً في معاملاتهم ولقاءاتهم بالآخرين.

«فالخزامى» [١] مثلا كان لا يتبخر إلا في منازل أصحابه، فإذا كان الصيف، دعا بثيابه فلبسها على قميص لكيلا يضيع من البخور شئ، كما إنه لم يكن يرضي بالتبخر واستقصاء ما فى العود من «القتار» [٢] حتى يؤتى بدهن فيمسح به صدره، وبطنه وداخلة إزاره، ثم يتبخر ليكون أعلق للبخور. [٣]

وبالطبع لم يكن حرص «الخزامى» على اغتنام ما يعلق بالهواء من رائحة البخور ضربا من العته، وإنما هو استغلال ما واتاه من الفرص، إذ لم يقدم إزاء فعلته تلك مقابلا من المال ولو كان أقل القليل، فهو بالنسبة إليه - إن حدث - كثير، وأمره لاشك مرفوض، أما وإنه على نفقة سواه، فلا ضير أن يبتدع الحيل حتى يحتجز فى طيات ثيابه غير القليل من ذلك «الدخان المعطر».

وفلسفة «الخزامى» في حرمان نفسه من شراء البخور والتمتع به أينما شاء وكيفما شاء إنما تكمن وراء تقديمه النصح لمن يقتنى هـذا

---

(١) الخزامى : هو أبو محمد عبد الله بن كاسب، يقول عنه الجاحظ : إنه كان أبخل من برأ الله. وأطيب من برأ الله. وكان من أصحاب أبى نواس ويتكلف الشعر على مذهب، كما كان فكها ذا طبيعة عابثة، وكان كاتبا لمويس بن عمران.

(٢) القتار : الدخان.

(٣) البخلاء - الجاحظ - تحقيق : طه الحاجرى ص ٦٠، ٨٩.

البخور، أو لمن عنده شئ منه بالحفاظ عليه، لعله واجد بذلك بغيته لديه يوماً، إذ يقول لهم : «إن الطيب غال وعادته رديئة، وينبغى لمن كان عنده أن يحرسه ويحفظه من عياله، وإن العطار ليختمه على أخص غلمانه. «والمعنى - كما يقولون- فى بطن الشاعر».

ومن الطرف التى تؤكد هذا الطبع الردئ: أن أبا جعفر الطرسوسى... وهو أحد أفراد هذه الجماعة- كان حريصا على ألا يعلق بإصبعه شئ من رائحة وضعها له أحد الأصدقاء على شاربه، ويبدو أن صاحبه هذا كان وقد وضع في هذا العطر مادة لاذعة نكاية به، فحين آلمت «الطرسوسى» شفته انعليا. أدخل إصبعه في فمه وحك به شفته من الداخل، خشية لصوق شئ من العطر بأصبعه إن هو حك به شاربه مباشرة» (١).

ويقول الجاحظ :إن «عبد الرحمن الثورى» (٢) كان يرتضع لبن ناقته من خلف الضرع كى لا يضيع شئ من اللبن إذا ما حلبه فى إناء». (٣)

ولعل هذا الصنيع من «الثورى» يرغبنا فى التعرف إلى كنه هذا الرجل، وسر حفاوته أو اهتمامه بما قد لا يراه سواه ذا قيمة أو ذا بال، وذلك فيما يذكره عنه الجاحظ بقوله :«إنه كان يعجب بأكل

---

(١) المصدر السابق ص ٥٨.

(٢) الثورى : أحد سراة البصرة، وكان يصطنع التجارة، كما كان شديد العارضة، عضب اللسان.

(٣) البخلاء ص ١٨١ تحقيق الحاجرى.

الرأس، ويلذ له أن يصفها ويجسد منافعها، ومن لطيف قوله عنها : «الرأس شئ واحد، وهو ذو ألوان عجيبة، وطعوم مختلفة، والرأس فيه الدماغ وطعمه مفرد، وفيه العينان وطعمهما مفرد، والشحمة التى بين أصل الأذن ومؤخر العين وطعمها مفرد، على أن هذه الشحمة خاصة أطيب من المخ، وأرطب من الزبد، وأدسم من السلاء[1]. وفى الرأس اللسان وطعمه مفرد، والخيشوم، والغضروف، ولحم الخدين، وكل شئ من هذه طعمه مفرد، والرأس سيد البدن، والدماغ معدن العقل، وخاصة الحواس، وبه قوام البدن، وفيه يقول الشاعر :

إذا نزعوا رأسى وفى الرأس أكثرى
وغودر عند الملتقى ثم سائرى

وهكذا يصور «الثورى» هذا الجزء وحده من الجسد، ليدلل على هول افتقاده ومدي لحوق الخسارة بمن لم يحظ بجزء منه.

وكما نرى فهو يرفع بفلسفته أو بقوله هذا قدر التافه أو الحقير من الأشياء حيث لا أمل في الجود به إن شاركه أحد طعامه، فالطبع فإن ما هو غير تافه أو غير حقير أولى بحرمان غيره منه.

وعلى هذا النهج من الحرص، وفوق هذا الدرب من الوعى والإدراك لأقل فوائد الأشياء، كانت خطا :«سهل بن هارون»[2] ورفاق مذهبه.

---

(١) السلاء : السمن ونحوه ما دام خالصا، وجمعه: أسلئة.

(٢) سهل بن هارون : كان عاملا ليحيى البرمكى، ثم صاحب دواوين هارون الرشيد بعد ذلك.

فمما يذكره صاحب العقد الفريد :«أن دعبل الخزاعى - الشاعر - وبعض صحابه دخلوا يوماً عند سهل بن هارون، ثم تحدثوا فأطالوا الحديث معه حتى أضر به الجوع، فدعا بغدائه، فإذا بصفحة «عدملية» [١] فيها مرق، ولحم ديك قد هرم، لا تحز فيه السكين، ولا يؤثر فيه الضرس، فأخذ قطعة خبز جافة، وأخذ يقلب بها جميع ما فى الصفحة، ففقد الرأس، فأطرق، ثم رفع رأسه إلى الغلام وقال : أين الرأس؟ قال : رميت به. قال : لم ؟ قال الغلام: لم أظنك تأكله ولا تسأل عنه. قال : ولأى شئ ظننت ذلك؟ فوالله إنى لأبغض من يرمى برجله فضلا عن رأسه، والرأس رئيس الأعضاء، وفيه الحواس الخمس، ومنه يصيح الديك، وفيه العين التى يضرب بها المثل في الصفاء، فيقال : شراب مثل عين الديك، ودماغه عجيب لوجع الكلية، ولم ير قط عظم أهش من عظم الرأس، فإن كان بلغ من جهلك ألا تأكله فعندنا من يأكله. عد، وانظر أين هو؟

قال الغلام : والله ما أدرى أين رميته ؟ قال سهل : لكننى والله أدرى أنك رميت به في بطنك» [٢].

وما كان مثل هذا الحوار الذي اصطنعه سهل بن هارون بينه وبين الغلام، دون محاولة تقديم الطعام للجالسين معه أو حتى دعوتهم إليه، إلا إشعاراً لهم أولا بمدى التضحية بهذا الرأس، أو توزيع جزئياته البالغة النفع عليهم، وذلك بالطبع حين تعجزه الحيلة عن حرمانهم من الطعام، حيث يجد نفسه مضطراً إلى تقسيم هذا الجزء الهام من جسد الديك «المصون» بينهم، ولكن أنى له ذلك وقد أوقعه الغلام فيما لم يكن يتوقعه أو يرجوه ؟

---

(١) عدملية : قديمة.
(٢) العقد الفريد جـ٦ ص ١٨٠.

حيل الحرمـــــان

تبـاينت ألوان الحرمان واختلفت مظاهره، وحيله بين أفراد تلك الجماعة تبعاً لمدي العزوف وعدم الرغبة في لقاء السائلين أو إجابة طلب المحتاجين.

ولقد بدت تلك الحيل - مع كثرتها- طرفاً أدبية رائعة إذ إحتوت على سلوكيات تلائم طباع ذويها ودون أدنى اتفاق أو ملاءمة لطباع المعتدلين وسلوكهم.

فهذا «أحمد الخاركى»[(١)] يرد على أحد الجالسين معه. بعد أن سمعه يترنم بهذين البيتين من الشعر لأبى الشمقمق[(٢)]، ويتعمد إسماعهما إياه، وهما :

رأيت الخبز عز لديك حتى　　　حسبت الخبز فى جو السحاب
وماروحتنا لتذب عنـــا　　　ولكن خفت مرزئة الذبـاب[(٣)]

فيقول له ابن الخاركى : ولم ذب عنهم لعنه الله ؟ والله ما أعلم إلا أنه شهى إليهم الطعام،ونظف لهم القصاع، وفرغهم له: ألا تركها تقع فى قصاعهم، وتسقط على آنافهم وعيونهم ؟ هو والله أهل لما هو أعظم من هذا».

---

(١) أحمد الخاركى : أحد بخلاء العصر العباسى الأول، وكان تاجراً، كما كان كثير الادعاء بما لا يملك.

(٢) أبو الشمقمق : شاعر عباسي واسمه : مروان بن محمد، وقد أنشد هذين البيتين في حق جعفر بن أبى زهير.

(٣) روحتنا : جلبت لنا الهواء.

ثم يقول: «كم ترون من مرة قد أمرت الجارية أن تلقى فى القصعة الذبابة، والذبابتين، والثلاثة، حتى يتقزز بعضهم، أويكفى الله شره؟»(١).

«فابن الفاركى» كما نرى لا يقصد مجرد المداعبة بالحديث أو انتقاد كلمات الشاعر قدر قصده التنفير من مشاركة غيره طعامه، والحيلولة دون نيل الجالسين معه حتى الضيافة، فاتخذ من التعليق على هذين البيتين وسيلة لبلوغ هدفه، وحيلة لحرمان غيره من مشاركته الطعام أو الشراب.

ولقد كان الهروب من المنزل وسيلة أخرى يلجأ إليها صاحب الدار إن لم يجد حيلة غيرها يسعفه بها الخاطر إن حل به ضيف، أو قصده أحد العابرين، كما حدث لمروان بن أبي حفصة- الشاعر العباسى المعروف - حين نزل بداره رجل من اليمامة، فأخلى له مروان المنزل، إيهاما بتكريمه، ولم يعد إليه مخافة أن يلزمه قراه تلك الليلة، فلما أحس الضيف بذلك، خرج واشترى ما يحتاجه، ثم رجع إلى بيت مروان، وكتب إليه هذين البيتين: (٢)

يأيها الخارج من بيته ... وهارباً من شدة الخوف
ضيفك قد جاء بزاد له ... فارجع، تكن ضيفاً على الضيف

فمروان لم يبال عند تركه المنزل بما يمكن أن يقال فى حقه، أو ما يمكن أن ينتقص من قدره بسوء فعلته، إذ لا يساوى ذلك ما كان

---

(١) البخلاء - للجاحظ - ص ١٦٨ دار الهلال بيروت ١٩٨٥.
(٢) العقد الفريد جـ٦ ص ١٨٥.

يقدره من انتقاص ماله، والخروج عن منهج الحماية له ممن لا يحسنون قدره، ويباغتون أصحابه بضيافتهم.

وهو بهذا لم يبق لضيفه، ولا لمن يعرف أمره بقية أمل فى محاولة أخرى لمشاركته طعامه، فما عليه أن خيب رجاء غيره فيه ما دام قد حقق لنفسه بغيته بالحفاظ على ماله وهو المعروف؛ ثراء، ومنزلة أدبية فى عصره.

ولعل من أكثر الحيل طرافة وإغلاقاً لباب الأمل فى وجوه المتضايفين عليهم، أو السائلين إياهم؛ ما قاله يحيى بن عبد الله بن خالد (الأموى) لمن جلسوا على مائدته، بعد أن مد يده إلى رغيف على خوانه، فرفعه أمامهم، وأخذ يزنه بيده ويقول لهم : «يزعمون أن خبزى صغير، فمن هذا «الزانى ابن الزانية» الذى يأكل نصف رغيف منه»[1].

فهو كما نرى لم يتورع عن بلوغ هدفه ببذاءة تعبيره والوصول إلى غايته بالكلمة السيئة إذ كانت هى الوسيلة إلى ذلك، وسبيلة فى الحيلولة دون إقدام إحد إلى طعامه أو محاولة الاقتراب منه آنذاك، هذا بالإضافة إلى أن تشيع رغبته أو فعلته هذه على ألسنتهم فلا يقرب أحد بعدها طعامه إن لم يكن منزله.

ولاشك فى أن الغاية عنده تبرر الوسيلة أو سوء التعبير الذى حقق بغيته وإن افتقد بها فى نظر الآخرين أبسط الجوانب الخلقية فى الإنسان.

---

(١) المصدر نفسه ص ١٨١.

كما نجد «ثمامة بن أشرس» لا يتورع أيضا أن يشهر بمن قدم لهم الطعام يوماً، وأن يمس - متعمداً- مشاعرهم، إذ استلقى على قفاه أمامهم وقال لهم :«إنما نطعمكم لوجه الله، لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً»[١].

فهو لا يرجو بإطعامهم وجه الله كما تنطق الآية الكريمة، وإلا ما أبدى هذا الرياء بقولها، فأظهر سوء طويته بفعلته، وإنما يرجو عدم عودتهم إليه، أو التفكير فى زيارته، دون مراعاة أو تقدير لما عدا ذلك.

وكان الشاعر :«حميد الأرقط»[٢] يتخذ من سلاطة لسانه فى الهجاء سلاحاً يحول به دون عودة من نزل عليه ضيفاً، حتى ليقال : إنه لم يسلم من هجائه أى إنسان أكل عنده.

ولقد سئل يوماً عن ضيف طعم عنده، فقال مصوراً هيئته وقت تناول طعامه :

ما بين لقمته الأولى إذا انحدرت
وبين أخرى تليها، قيد أظفور[٣]

فهو يرصد لقيماته، ويتابع انحدارها فى حلقه، ويقدر الزمن بين اللقمتين، ثم يذيع ذلك فى الناس حتى يضمن حسن العاقبة بعدم

---

(١) المصدر نفسه ص ١٧٩.

(٢) حميد الأرقط: أحد شعراء العصر العباسى، وكان يلقب بهجاء الأضياف، ويقال : إنه كان ألأم اللئام وأبخل البخلاء في عصره.

(٣) العقد الفريد جـ٧ ص ٢٠٨.

قصده أو حلول أحد داره، وبذلك يأمن على ماله، وزاده من أمثال زائره هذا.

ويقال إن ضيفاً آخرنزل بداره وطعم أيضا عنده، فقال فيه :

تجهز كفاه، ويحـــدر حلقـــه
إلى الزور ما ضمت عليه الأنامل
أتانا، ومساواه سحبان وائـــل
بيانا وعلماً بالذى هـــو قائـــل
فمازال عنه اللقم حتى كأنـــه
من العي لما أن تكلـــم باقـــل

فمع طرافة قوله تبدو دقة وصفه، كماتحس صدق تعبيره ونقل مشاعره فيما تخيره من الألفاظ وما أبداه من روعة التصوير، حتى لتكاد ترى ملامح الضيق المنبعثة فى أعماقه وقد شفت عنها بوضوح هذه الأبيات، وهو ما قصده وأسعفته اليه قريحته، وترجمته بأمانة ملكته وموهبته الشعرية محققة هدفه بإبعاد قاصديه.

وأظن ظنا أن زورة هذا الضيف كانت آخر زورات الضيفان له : إلا من ساقتة الأقدار إلى منزله ليكتب له الخلود المهين فى مثل هذه الأبيات.

وهذا« أبو الأسود الدؤلى» يقول أيضا واصفاً أحد ضيفانه وقت تناوله الطعام فى بيته :

كأنما فى فيه أحجار الرحـى وكأنما في جوفه تنـــور

ويخيل إلى أن مصدر غضب الشعراء ممن يقصدون منازلهم ويشاركونهم الطعام هو أنهم قد ألفوا الأخذ والنوال، بل وتناول الطعام أيضا، عند سواهم، فلم يكن العكس أمراً هينا عليهم، ولا على أموالهم التى أشقاهم جمعها، وبالتالى، فإن ما ينشدونه من الأشعار فى حق من يرزءون بطعامهم يعد رد فعل طبعى يستحقه من لا يدرك هذا الواقع المرير في نفوسهم.

وكان «محمد بن أبى المؤمل» يعلى صوته بالتنويه والتشنيع عند دخول زائره ويقول لغلامه : «يا مبشر (اسم الغلام) : هات لفلان شيئا يطعم منه، هات له شيئا ينال منه، هات له شراباً...»[١].

ويظل يكرر على سمع ضيفه مثل هذا القول، اتكالا على خجله، أو غضبه ونفرته، وطمعا في أن يقول له الضيف: قد فعلت (أكلت أو شربت) فيبرأ من الذم، ويسلم بحيلته هذه زاده، وماله.

أما «محمد بن الجهم»، فكان من حيله في إبعاد الطامعين عن ماله وطعامه ما يكشف عن ذكاء وعمق في رؤيته للأمور الموصلة إلى غايته، إذ يقول :«وددت أن عشرة من الفقهاء، وعشرة من الشعراء، وعشرة من الخطباء، وعشرة من الأدباء، تواطئوا على ذمى، واستهلوا أقوالهم بشتمى، ثم ينشر ذلك عنهم فى الآفاق، حتى لا يمتد إلي أمل آمل، ولا ينبسط نحوى رجاء راج»[٢]

---

(١) البخلاء : للجاحظ - تحقيق طه الحاجرى ص ٩٩.

(٢) العقد الفريد جـ٦ ص ١٧٧.

فتظاهر «ابن الجهم» بالرغبة في دفع مودة الناس عنه وقطع صلتهم به ورجائهم فيه، يعد فى الواقع تعبيراً صريحاً عن افتقاده بالفعل عودة القريب والبعيد.

كما يكشف قوله أيضا عن محاولة ستره لبخله وتمويه حقيقته، فما وجدنا كريما، ولا لئيما، تخلى عن طبعه حتى وإن تظاهر أيهما بغير واقعه، لأن كليهما يجرى على فطرته وجبلته، وما بين الخلق والتخلق لا يخفى على بصير.

ومن الحيل الطريفة أيضا والتى اتخذها هؤلاء البخلاء وسيلة للحرمان من نوالهم : حسن الرد على السائل، واعتبارهم ذلك أفضل من العطاء، حيث يغنى القول فى نظر أصحاب هذه الحيلة عن الفعل، فيحفظون المال، وينالون الرضا من السائل.

فمما يرويه «ابن عبد ربه» : أن يزيد بن عمر الأسدى، أوصى بنيه بقوله : «يا بنى : تعلموا الرد، فإنه أسد من العطاء»[1]

ويزيد بن عمر هذا يبدو مغايراً لأمثال أبى جعفر القمى (الشاعر العباسى) الذى لا يرى في حسن الرد غنية عن عطاء السائل، فيقول:[2]

يا جواد اللسان من غير جود
ليت جود اللسان من راحتيكا

---

(١) المصدر السابق جـ٦ ص ١٩٧.
(٢) يتيمة الدهر - لأبى منصور الثعالبى - جـ٤ ص ٤١١.

إذ يتمنى لمن هذا شأنه ألا يخفى بخله وراء لسانه، وألا يستر عطاءه بمن رده، فيقصر نواله على قوله، وهو في نظره أمر غير حميد.

ويذكر الجاحظ أن «ثمامة بن أشرس» قد أوقعه جماعة من الناس في مغبة إطعامهم مرة، فما سمع بذلك آخرون حتى توافدوا عليه، وأتوه برقاع وشفاعات لإطعامهم، فلما رأى ما قد دهمه من الأمر، أقبل عليهم وقال لهم :«.. إن الله عز وجل لا يستحى من الحق، كلكم واجب الحق، ومن لم تجئنا شفاعته فالحرمة كمن تقدمت شفاعته، كما أنا لو استطعنا أن نعمكم بالبر، لم يكن بعضكم أحق بذلك من بعض، فكذلك أنتم إذا أعجزنا، أو بدالنا.

فليس بعضكم أحق بالحرمان من بعض، أو بالحمل عليه، أو بالاعتذار إليه من بعض، ومتى قربتكم وفتحت بابى لكم، وباعدت من هو أكثر منكم عدداً وأغلقت بابى دونهم، لم يكن إدخالى إياكم عذراً لى، ولا فى منع الآخرين حجة. يقول الجاحظ :«فانصرف الجميع ولم يعودوا»[1]

وما نحسب أمثال هذه الطرف أو الحيل - مع قلتها - إلا مجسدة فى جملتها مشاعر استياء أصحابها، ومبدية بوضوح نفرتهم من زائريهم، وعدم رغبتهم فى لقاء أمثالهم ممن يخرقون- فى نظرهم - نواميس حياتهم الخاصة، ويستهينون بحصاد أعمارهم، وما جمعوه من الأموال بكدهم.

ومن هنا بدت تلك الحيل وليدة دهائهم ونسيج عبقريتهم، وسياج أمن يحفظون به أعز ما لديهم في الحياة وهو المال.

---

(١) البخلاء - للجاحظ - تحقيق طه الحاجرى ص ١٩٩.

وكان طبيعيا أن تكثر حيل البخلاء بكثرة المرتادين لبيوتهم من ذوى الحاجة، وأن تبدو- مع كثرتها- من النوادر الأدبية والطرف المستملحة، سواء منها ما ذكرناه، أم ما لم نذكره، كرتاج الباب في وجه القاصدين إياهم، وإسدال الستائر حتى لا يروا أحداً وادعاء الخرس حتى ييأس من إفهامهم، ومن عطائهم من لا يعرفهم، وتقديم الخبز العفن، وما لا يؤكل من الطعام الفاسد، إلي غير ذلك من الحيل الحوائل دون بلوغ القاصدين إياهم شيئا مما يأملون.

ولكنا آثرنا ذكر القليل التزاماً بمنهجنا في هذا العمل، وأيضا لإيماننا بأن هذه الحيل مع طرافتها غير انها دون شك من الصور التى لا ترتضيها الفطر السوية ولا يحتمل السير على دربها سوى تلك الطبقة المميزة بسلوكهم الذميم، ومن يمثلون الملامح الباهتة في وجه المجتمع الذين يعيشون فيه.

الدوافع النفسية للحرمان

إن ما تبلوره سلوكيات تلك الجماعة تجاه غيرهم من المحتاجين فى صورة حرمانهم أو مد العون لهم حتى بفضلة ما لديهم من الأموال أو المتاع ليترجم نوعاً من المشاعر أو الأحاسيس غير الحميدة، والتى تبدو وكأنها لون من العقاب أو رد الفعل السئ لما يختمر فى أعماقهم إزاء سواهم.

ولقد حاولت التعرف إلى ما وراء ذلك السلوك من الدوافع أو الأسرار، فبدا من أبرزها : شعورهم بالمعاناة والمشاق فى جمعهم لتلك الأموال، وسوء ظنهم بالناس، ويقينهم بطمع الآخرين فيهم، وسجازاة إحسانهم بسوء التقدير، وخوفهم من الفقر، وأملهم فى طول العمر: إلى غير ذلك مما سنتناوله في مقامنا هذا.

أما عن شعورهم بالمعاناة في جمعهم للأموال وأهمية ذلك فى محافظتهم عليه، فنعتقد أن فى وصية «خالد بن يزيد»[1] لابنه، ما يغنى عن المزيد من أشباهها ، إذ يحدث ولده عن الوسائل وسبل الوصول إلى ما سيئول إليه من أموال، ويصور له مدى سعية المضنى فى شتى دروب الحياة حتى حصله واجتلبه، فيقول له :[2]

«...فلولا أنى دخلت من كل باب، وجريت مع كل ريح، وعرفت السراء والضراء حتى مثلت لى التجارب عواقب الأمور، لما أمكننى جمع ما أخلفه لك ، ولا حفظ ما حبسته عليك».

---

(١) خالد بن يزيد هو : خالويه المكدى مولى المهالبة، وكان قد بلغ في البخل ما لم يبلغه أحد، وكان قاصا متكلماً بلغياً.

(٢) البخلاء- تحقيق طه الحاجرى - ص ٤٨، ص ٧٥ طبعة دار الهلال- بيروت.

سل عنى صعاليك الجبل، ورؤوس الأكراد، ومردة الأعراب، والفتاك، واللصوص: كيف بطش بساعة البطش، وكيف حيلتى ساعة الحيلة، وكيف رسغانى في القيد إذا أثقلت؟».

ولاشك فى أن هذا التجسيد لأهوال التحصيل والجمع تبدو من أهم الدوافع إلي اكتناز المال وعدم التفريط فيه، حتى ليعد حرمان الآخرين منه مشروعاً في تقديرهم، وهو ما نلمسه فى قول خالد لابنه بعد ذلك، وتأكيده أن كل ما قدمه له من مهارات الجمع وقدرات التحصيل تبدو غير جديرة بأن يحمد نفسه عليها ما لم يشفع ذلك بالحفاظ على ما جمعه، وأيضا منعه من التسرب أو الانتقاص: إذ يقول لابنه :«ولم أحمد نفسى على جمعه كما حمدتها على حفظه». فمنزلة المنع أو حرمان الآخرين منه تسمو فى نظره منزله الجمع، لأنها النتيجة المرضية لكل مقدمات المعاناة والتحصيل السابقة.

ومما يذكره الجاحظ : أن خالداً هذا قد استرد درهماً كان قد أعطاه يوماً لسائل على أنه فلس، وعندما قيل له : هذا لا يحسن، ولا نظنه يحل، وهو بعد قبيح، قال : قبيح عند من ؟ إنى لم أجمع هذا المال بعقولكم، فأفرقه بعقولكم».

ولقد ولد شعورهم بالمعاناة في جمع المال : عمق معرفتهم بجدواه وآماد ونفعه، إذ كان يدفعهم ذلك إلى الزهو به، والتباهى بالحرص عليه، والوفاء له بحرمان غيرهم منه. «فسهل بن هارون»: يفضل المال على العلم ويقدمه عليه، ويرى أن بالمال يغاث العالم، وبه تقوم النفوس قبل أن تعرف فضيلة العلم، وأن الأصل أحق بالتفضيل من الفرع.

كما كان يفضل المال حتى على القوت، ويقول: «إن فضل الغنى على القوت كفضل الآلة تكون فى الدار، إن احتيج إليها استعملت، وإن استغنى عنها كانت عدة».

ويرشد كل سالك دربه في هذا المجال فيقول: «عليك بطلب الغنى، فلو لم يكن لك فيه إلا أنه عز فى قلبك، وشبهة فى قلب غيرك لكان الحظ فيه جسيماً، والنفع عظيماً»[١].

وكان «الكندى»[٢] يسخر ممن يسمونه «البخيل»، ويرى في ذلك جهلاً بمعرفتهم ألوان الضرر ومناحى النفع لأنفسهم وعيالهم فى الحياة، إذ يقول لهم: «تسمون من منع المال من وجوه الخطأ، وحصنه خوفاً من الغيلة، وحفظه إشفاقاً من الذلة: بخيلا تريدون بذلك ذمة وشينه؟.

وتسمون من جهل فضل الغنى، ولم يعرف ذلة الفقر، وأعطى في السرف، وتهاون بالخطأ، وابتذل النعمة، وأهان نفسه بإكرام غيره: جواداً، تريدون بذلك مدحه وحمده؟، فاتهموا على أنفسكم من قدمكم على نفسه، فهو أجدر أن يخطئ علي غيره»[٣].

كما يعجب «الخزامى» ممن يستمرئون الإنفاق، ويتلفون الأموال بسوء تقديرهم لأوجه نفعها: ويحرمون أنفسهم من دوام نعمتها

---

(١) البخلاء - تحقيق الحاجرى - ص ١٤ومابعدها.

(٢) «الكندى» هنا: ليس هو أبو يوسف يعقوب بن اسحاق الفيلسوف، وإنما هو رجل من أصحاب البيوت والعقارات، وكان صاحب تدبير عجيب، ويقول عنه الجاحظ: إنه كان خفيف الظل وحسن الحديث.

(٣) المصدر السابق ص ٩٠ومابعدها.

والتمتع بحيازتها، فيسمى المنفق مفسداً، والممسك مصلحاً، ويرى فى تهجين غيره له ولأمثاله بالبخل حسداً للنعمة التى ميزوا بنمائها وحمايتها من الانتقاص.

وطبعى أيضا : أن يتولد من حبهم للمال وحرصهم عليه: سوء ظنهم بالناس- كما أسلفنا- وأن يبقى هذا الظن دافعاً إلى حرمان الآخرين، ورفض قضائهم لسواهم ما هم بأمس الحاجة إليه.

وما ذلك إلا لدوام شعور هذه الفئة برغبة الآخرين في استنزاف أموالهم، وتعمدهم الإبادة لما أفنوا أنفسهم من الإجهاد في جمعه والحفاظ عليه.

فخالد بن يزيد، حين أوصى ابنه بحفظ ما سيئول إليه من مال، يعلل ذلك، أو يفلسفه بأنه يعيش فى مجتمع غريب، خربت فيه الذمم والضمائر، ثم يقول :«وأنت غلام، لسانك فوق عقلك، وذكاؤك فوق حزمك، لم تعجمك الضراء، ولم تزل في السراء، والمال واسع، وذرعك ضيق، وليس شئ آخوف عليك عندى من حسن الظن بالناس.

فاتهم شمالك على يمينك، وسمعك على بصرك، وخف عباد الله على حسب ما ترجو الله»(١).

وهو لا يبعد فيما نرى عن مفهوم «أبى العتاهية» ونظرته إلى الناس. إذ يقول :(٢)

أنت ما استغنيت عن صا حبك الدهر أخـــوه

---

(١) البخلاء - تحقيق الحاجرى - ص ٥٠.

(٢) ديوان أبى العتاهية ص ٤٧٤ دار صادر بيروت ١٩٨٠.

فإذا احتجـت إليـه ساعة مجك فـوه

كما يقول : [١]

المرء منظـور إليـه ما دام يرجى مالديـه
من كنت تبغى أن تكـو ن الدهر ذا فضل عليـه
فابذل له ما فى يديـ ـك، وغض عما فى يديـه

ويرد «الأصمعى»- وكان مشهوراً بالبخل والإمساك - يوما على سائل طلب منه صدقة (زكاة) فيقول : [٢] «أما هذا، فليس يسعة إلا بيت المال، ولو وهبت لك درهماً واحداً لفتحت على مالى باباً لا تسده الجبال، والرمال، ولو استطعت أن أجعل دونه ردماً كردم يأجوج ومأجوج لفعلت.

كما يقول :«إن الناس فاغرة أفواههم نحو من عنده دراهم، فليس يمنعهم من النهس إلا اليأس، وإن طمعوا: لم تبق راغبة، ولا ثاغبة، ولا سبد، ولا لبد، ولا صامت،ولا ناطق إلا ابتلعوه والتهموه» [٣].

ويبلغ سوء الظن بسهل بن هارون أن يختم - فى بيته - علي سد (حاجز) وضع من خلفه بعض الفاكهة، خشية أن ينال أحدهم

(١) المصدر نفسه ص ٤٦٠.
(٢) البخلاء - تحقيق الحاجرى - ص ٢٠٨.
(٣) الراغبة : الناقة. والثاغبة : الشاة. والسبد: القليل من الشعر. واللبد: الصوت المتلبد. والصامت والناطق، يكنى بهما عن الذهب والفضة، والمقصود : أنه إن سهل للناس طمعهم فيه لم يبقوا على شئ من كل ما ذكر، أى أنهم لا يتركونه إلا خاوى الوفاض تماما.

شيئا، ونجده فى رده على من عاب فعلته هذه يقول :«... وعبتمونى حين ختمت على سد عظيم، فيه شئ ثمين: من فاكهة نفيسة، ومن رطبة غريبة، على عبدنهم، وصبى جشع، وأمة لكعاء، وزوجة خرقاء..»[1].

«فخالد بن يزيد» فى وصيته لابنه، و«الأصمعى» في رده على المسكين، وسهل بن هارون» في موقفه من أهل بيته، يجسدون بأقوالهم نواياهم تجاه الناس، ويبدونهم وكأنما مزجت بالشر طباعهم، أو لم يبق أمام غيرهم من سبل الحياة سوى الرغبة فى التعيش بأموالهم، أو اغتصاب ما اشقاهم جمعه منه.

وما ذلك فى الواقع غير الوهم الناتج من سوء ظنهم بالناس، إذ لا يلجأ إليهم - غالبا- سوى فاقد الحيلة، أو من دفعته أزراء المعيشة لطلب الحاجة منهم، أو من يكون سر لقائه بهم هو المصادفة مع الجهل بحقيقتهم، أو من لديه الأمل فى نفوذ رحمة الله إلى قلب أحدهم.

أما باقى الأفراد والجماعات من الناس، فهم بمنأى عنهم لمعرفتهم بحقيقتهم، ويقينهم أن فاقد الرحمة لا يرحم.

ولعل من أعجب دوافع الحرمان عند هذه الجماعة: شعورهم بشر الجزاء، وسوء التقدير إن هم أحسنوا إلى المحتاجين من الناس، حتى تصوروا أن الإحسان إلى طالبه ضرب من الفساد، إذ تساوى فى

---

(١) البخلاء - تحقيق الحاجرى - ص ١٢ ومابعدها.

نظرهم: الإعطاء والحرمان، حيث لا يعود عليهم من الأمرين ما يسرهم.

«فالحارثى»[١] حين سئل عن عدم إطعامه لغيره يقول :«... وكيف أطعم من إن رأيته يقصر فى الأكل، فقلت له:كل ولا تقصر، قال : ولم فطن لما بين التقصير وغيره؟، وإن قصر فلم أنشطه ولم أحثه قال : لولا أنه وافق هواه»[٢].

والحارثى بهذا القول قد وصل إلى غايته من أقصر وأيسر طريق، إذ وجد فى بخله أو عدم إكرام من قصده : تخلصاً من الشعور بما لا يرتضيه، وهو جمعه بين الإحسان واللوم معا.

ويستأنس «الحارثى» فى هذا المقام بما يذكر«عن بلال بن أبى بردة»[٣] وكان رجلاعيابا، كما كان إلي أعراض الأشراف متسرعاً، وأنه قال يوماً للجارود»[٤]: «...كيف طعام عبد الله بن أبى عثمان؟ قال الجارود :«يعرف ، ولا ينكر». قال بلال : فكيف هو عليه؟. قال :«يلاحظ اللقم، وينهر السائل». قال : وكيف طعام «سلم بن قتيبة»؟[٥]، قال :«طعام ثلاثة، فإن كانوا أربعة جاعوا».

---

(١) «الحارثى» أحد السراة المتنبلين البخلاء، وله مقامات رائعة في تصوير البخل، واحتجاجات البخلاء من أمثاله.

(٢) البخلاء - تحقيق الحاجرى- ص ٧١ ومابعدها، وص ١٠١ طبعة بيروت ١٩٨٠.

(٣) بلال بن أبى بردة : هو ابن موسى الأشعرى، وعمل قاضيا. ووالياً على البصرة.

(٤) الجارود : هو ابن أبى سبرة، وكان شاعراً متشيعاً حسن الحديث.

(٥) سلم بن قتيبة : كان أحد ولاة البصرة فى العصر العباسى الأول.

قال بلال : فكيف طعام «المنجاب بن أبى عيينة»[١]؟ قال الجارود: «يقول المنجاب :«لا خير في ثلاثة أصابع فى صفحة».

وهكذا، حتى أتى على أهل البصرة وعلى كل من يؤثره بالدعوة، وبالآنسة. والخاصة، ويحكمه فى ماله. فلم ينج منه إلا من كان يبعد، كما لم يبتل به إلا من كان يقربه منه».

«والحارثى» وإن لم يكن بحاجة إلي مثل هذا الحوار بين «بلال» و«الجارود» غير أنه يعد مثل ذلك مندوحة لبخله، وتكئة للحرمان ومنع الإعطاء.

وعلى النهج نفسه لاتبعد خطا «ابن التوأم»[٢] اذ يقول في رده على رسالة أبى العاص بن عبد الوهاب[٣] «...هل رأيت أحداً قط أنفق ماله على قوم كان غناهم سبب فقره، ثم سلم عليهم حين افتقر، فردوا عليه، فضلا علي غير ذلك ؟

أو لست قد رأيتهم بين محمق له ومحتجب عنه؟ وبين من يقول: فهلا أنزله حاجته بفلان الذى كان يفضله، ويقدمه، ويؤثره ويخصه؟،

---

(١) المنجاب بن أبى عيينة: أحد السراة البخلاء فى البصرة في عهد الجاحظ.

(٢) ابن التوأم الرقاش : كان من العقلاء ذوى الرأى والفلسفة، كما كان من البخلاء، وذوى الجدل.

(٣) أبو العاص : هو ابن عبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفى، وكان من فلاسفة العصر، وكان جدليا فصيحا، كما كان سخيا كريما، وحكيما ورعا.

ثم لعل بعضهم أن يتجنى عليه ذنوباً ليجعلها عذراً في منعه، وسبيلا إلى حرمانه»[١].

ويبدو لنا بهذا وغيره - وما أكثره- أن رد الفعل السئ لما كانوا يقدمونه - ولو عفواً- من الإحسان، كان يعمق لديهم الاعتقاد بفضل الحرمان، وينأى بهم عن المخاطرة بسواه، وهو ما يعبر عنه أحد شعرائهم بقوله :[٢]

وزهدني في كل خير صنعته
إلى الناس، ما جربت من قلة الشكر

فهم لا يتوقعون في حالات منعهم الآخرين غير اللوم والامتهان، كما إن إحسانهم مؤول دائما بأسوء الاحتمالات وربما أبعدها عن أذهان العلة المحسنة منهم - إن صح هذا - ولذا فهم يفضلون الحرمان عن مقابله، إذ لاشك في أن اللوم مع الحرمان أكثر نفعاً لهم من اللوم مع الإعطاء.

ولقد كان هذا الظن السئ بالناس مهيئاً أيضا لدافع آخر من دوافع الحرمان وهو الشعور بطمع الناس فيهم، بل إنهم اعتبروا ذلك مدخلا فسيحاً إلى افتقاد أموالهم، ومنفذا ميسوراً إلى خراب دورهم.

ولعل هذا ما جعل «الخزامى» يشعر بالجرم حين أقرض صديقه «الأسوارى» مائة درهم، فأحس بالحزن وانكسار النفس، وأخذ يبكت

---

(١) البخلاء - تحقيق الحاجرى - ص ١٧٦.
(٢) العقد الفريد جـ٧ ص ٢٢٢.

نفسه، ويهون من أمره على غيره بهذه الفعلة أو الخدعة التى وقع فى شركها، فيقول: «إن من أسباب إفلاس المرء: طمع الناس فيه، لأنهم إذا طمعوا فيه: احتالوا له الحيل، ونصبوا له الشرك، وإذا يئسوا منه، فقد آمن».

ويبلغ به الأسى من فعلته هذه، أو من إقراضه صديقه هذا المبلغ اليسير إلى حد أن يقول: «... وما أشك في أنى عنده غمر[1]، وأنى كبعض من يأكل ماله، وهو مع هذا خليط وعشير، وإذا كان مثله لم يعرفنى ولم يتقرر عنده مذهبي، فما ظنك بالجيران؟ بل ما ظنك بالمعارف؟ أرانى أنفخ في غير فحم، وأقدح بزند مصلد، ما أخوفنى أن أكون قد قصد إلي بقول؟ ما أخوفنى أن يكون الله فى سمائه قد إلي أن يفقرنى».

ولعل ذلك راجع إلي أن «الخزامى» لا يرى مبرراً لاستهانته بما له هكذا، إذا لم يتعود الخضوع من قبل لأهواء غيره، ولم يعرف من جوانب الخير غير ما قصره علي نفسه وأحكم مغاليقه من الأموال على الآخرين، ولذا نجده يخشى العاقبة، ولا يتوقع العفو أو الإحسان من الله إليه بالإبقاء على ما لديه من مال.

كما يصور لنا «ابن التوأم» مدى خشيته من طمع الناس فيه بقوله لمحدثه: «...إنك إن فتحت على نفسك مثل سم الخياط، جعلوا فيه طريقاً نهجاً، ولقما[2] رحباً، ولو جعلت الباب مبهماً،

---

(١) الغمر (بفتح الغاء): غير المجرب للأمور.

(٢) اللقم: الطريق الواضح.

والقفل مصمتاً، لتسوروا عليك من فوقك.. »[١] فإن لم تستعمل الحذر، وتأخذ بنصيبك من المداراة، وتتعلم الحزم، وتجالس أصحاب الاقتصاد، وتعرف الدهور، ودهرك خاصة، وتمثل بنفسك الغير حتى تتوهم نفسك فقيراً ضائعاً، وحتى تتهم شمالك على يمينك، وسمعك على بصرك، ولا يكون أحد أتهم عند نفسك من ثقتك، ولا أولى بأخذ الحذر منه من أمينك، اختطفت اختطافاً، واستلبت استلاباً، وذوبؤا مالك وتحينوه، وألزموه السل ولم يداووه ». [٢]

ومع أن مثل هذه الأقوال تعد في نظرنا تطرفاً فى الحرص، ومبالغة فى تبرير حرمانهم المحتاجين، غير أنها تكشف لنا أيضا عن مدى رغبتهم في الإمساك وأصالة حيلتهم فى الشح.

إذ لاشك فى أن دوافعهم إلى هذه الألوان من الحرمان إنما تتسلل من أعماقهم إلي سلوكياتهم، وتنطوى عليها نفوسهم طوال سيرهم الوئيد والحذر على طريقهم الذى عبدوه- كما يقولون بكدهم وشقائهم- ونهجهم غير المألوف لسواهم.

لقد كان الخوف من الفقر، والأمل فى طول العمر: من أدق أسرار تلك الجماعة. وأبرز دوافعهم النفسية إلى حرمان الطامعين فيهم.

---

(١) البخلاء - تحقيق الحاجرى - ص ١٧٨.

(٢) المصدر نفسه ص ١٩١.

فـهذا «سـهل بن هارون» يقـول فى رسـالتـه إلى أبناء عـمـومتـه: «إن للغنى لسكراً، وإن للمـال لنزوة، فـمن لم يحـفظ الغنى من سكر الغنى فقد أضاعه، ومن لم يربط المال بخوف الفقر فقد أهمله»[١].

فـابن هارون يرى أن من راقـه هذا النـهج، أو رغب السـير في هذا السبيل فـقد عرض نفسه لهزات الإغراء وسكر الغنى، واتجه بصره إلي بريق المال ونزوته، وهو الملوم بعـــد هذا إن أطاح به هواه عن عـــقله، أونأت به نزوة الإنفـاق من المال عن صواب المنع، ودفـعـه الإهمـال عن الحرص فلم يربط ماله بخوف الفقر، ولم يحسن التدبير للعاقبة كما يتصور «ابن هارون».

وأعتقد أيضا أنه يدفع - بهذا النهج- إلي الحذر في كل الخطا، واستـخدام العقل فى كل متطلبات الحيـاة، ويرى أن الخضوع للهوى سبيل الضياع، وأن الإنفاق منحدر الفقر ومهبط الهوان.

كـمـا لا أرى «زيد بن جبلة» بعـيـداً عن هذا المعنى فى قـوله : «ليس أحد أفقر من غنى أمن الفقر».

فـخـوف ابن جـيلة وأمـثـاله من الفـقـر هو فى الواقع : مـعـراج وصـولهم إلي الغنى، ووسـيلتـهم إلي أحب الغـايات والأهداف، وهو الحفاظ عليه من الضياع.

فـحين يسـأل خـالد بن يزيد :«مـالك لا تنفق فـإن مـالك عـريض يقول لهم : «الدهر أعرض منه».

---

(١) المصدر نفسه ص ١٢ ومابعدها.

وعندما يقال له : «كأنك تؤمل أن تعيش الدهر كله ؟ يقول : لا، ولكنى أخاف ألا أموت في أوله»[١].

وهو لاشك ينسج من الحذر رداء العمر، ويخشى من الحاضر فجأته، ومن المستقبل نقمته وغدر الأهل به.

ولقد أوضح هذا أيضا : «سهل بن هارون» في رسالته إلى محمد بن زياد وأبناء عمومته إذ قال لهم : «... لا يغترن أحد بطول عمره، وتقوس ظهره، ورقة عظمه، ووهن قوته، أن يرى أكرومته، ولا يخرجه ذلك إلى إخراج ماله من يديه، وتحويله إلى ملك غيره، وإلي تحكيم السرف فيه، وتسليط الشهوات عليه، فلعله أن يكون معمرا وهو لا يدري، ومحدوداً له في السن، وهو لا يشعر، ولعله أن يرزق الولد على اليأس، أويحدث له بعض مخبئات الدهر مما لا يخطر على البال ولا تدركه العقول، فيسترده ممن لا يرده، ويظهر الشكوى إلى من لا يرحمه. أضعف ما كان عن الطلب، وأقبح ما يكون به الكسب». [٢]

فإلى هذا القدر يتحسب سهل بن هارون لطول العمر، ويقدر لما يمكن أن ينال منه أو يخبئ له الدهر خلاله من مفاجآت غير مرتقبه. أو إنجاب بعد يأس، ولا حيلة له آنذاك في استرداد شئ مما أنفق، أو توقع رحمة ممن لا يرحم، فى وقت أقعده فيه العجز وأفقده القدرة على الكسب، وهو كما نرى منطق عجيب، ومنهج يحتار في قبوله او رفضه أولوا الألباب.

---

(١) العقد الفريد جـ٢ ص ١٩٧.

(٢) البخلاء- تحقيق الحاجرى - ص ١٠٢ ومابعدها.

وفى الإطار نفسه يدور المعنى في قوله «ابن التوأم» - رداً على رسالة أبى العاص:- « ..ليس جهد البلاء من الأعناق وانتظار وقع السيوف لأن الوقت قصير والحس مغمور، ولكن جهد البلاء أن تظهر الخلة[١] وتطول المدة[٢]، وتعجز الحيلة، ثم لا تعدم صديقاً مؤنباً، وابن عم شامتاً، وجاراً حاسداً، ووليا قد تحول عدواً، وزوجة مختلعة، وجارية مستبيعة، وعبداً يحقرك، وولداً ينتهرك. فانظر؛ أين موقع فوت الثناء من موقع ما عددنا عليك من هذا البلاء» [٣].

فتأمل كيف صور الحياة والأحياء من حوله بعد أن حال المال دون رؤية أدنى ملامح الخير فى الناس حتى لم يعد يرى بين المحيطين به : صديقاً، أو ابن عم، أو جاراً، أو وليا، أو زوجه، أو جارية، أو عبداً، أو ولداً، إلا وهو متربص به، ومظهر له ما لا يرتضيه من القول أو الفعل إن اسلمه الإنفاق إلى الفقر، أو طال عمره وعجزت حيلته، مع أن السلامة من كل هذا البلاء تبدو فى فوت الثناء من أمثالهم حين لا يبالى بالعطاء لأيهم، ولا يهتم إلا بالحرص وعدم الإنفاق ممن يعز عليه فراقه ويفتديه بنفسه وهو المال.

فحيث لا مدى للحرص على المال تدور الخطا، وتتشكل الطباع، وتلتزم بذلك التشريع الأحمق: أفكار وسلوك بل وعقيدة هذه

---

(١) الخلة : الحاجة.

(٢) المدة : العمر.

(٣) المصدر السابق ص ١٧٧.

الجماعة، حتى ليبدو كل منهم وكأنه يعيش من أجل وبهذا المال وحده ،بينما يمتزج حب المال بالقيم وباقي مقومات الحياة عند غيرهم من الناس.

ولا غرابة إذا أن تتباين الطباع، وتختلف الوسائل باختلاف الغايات والأهداف، وأن تفتقد الثقة والمودة، كى تخيم الوحشة وظلمة الهدف بين تلك الجماعة وبين سواها من أسوياء البشر.

فلسفة الحرمان

تمهيد :

كثيرا ما أحسست بالشفقه على هذه الجماعة وأنا أحاول التعرف - من خلال أقوالهم وأفعالهم - إلى بواعث ذلك السلوك الشاذ والمتعمد، ثم وأنا أتأمل فى تعبيرهم الدقيق وفلسفتهم الغريبة فى تقرير أعمالهم غير المألوفة، وتجاوزهم بحب المال إلي عدم الاكتفاء بحرمان غيرهم منه، وإنما إلى حرمان أنفسهم أيضا من التمتع به بل وبكل ما يمكن أن يجلبه المال لهم من طيبات العيش ورغد الحياة، مبدين حكمتهم أو ما نعبر عنه بفلسفتهم ومنهجهم في كلتا الحالتين.

ولقد تخيرت بعض النماذج من معاملاتهم، مبتدئا إياها ببعض الأحداث أو التجارب التي دفعتهم إلي الإفصاح عن فلسفتهم في حرمان الآخرين من تلبيه رغبتهم في قرض، أو إطعام، وتفضيلهم حلول الكارثة أو الجائحة بأموالهم عن إعطاء شئ منها للمحتاج، وفلسفة بعضهم أيضا في تفضيلهم المال على العيال، وعلى العلم، وعلى القوت، كما أسلفنا الحديث عن بعض ذلك فى الدوافع النفسية للحرمان.

ثم تلوت ذلك بنماذج أخرى من سلوكياتهم وفلسفتهم في حرمان أنفسهم من شهى الطعام، أو الشراب، أو الملبس النظيف، أو الحذاء الجديد، وكذلك من الطيب، وحتى من نشوة الاستماع إلى الطرب أو الغناء، أو غير هذا وذاك مما يجسد ملامحهم الشاذة في

وجه مجتمعهم، ويبدى واقعهم البغيض من خلال حكمتهم أو فلسفتهم المنفرة من جميل الخصال، والداعية إلي اعتناق ما هو قبيح ومذموم من السلوك أو المعاملات.

فلسفه الحرمان للآخرين :

يذكر «الجاحظ» أنه سأل «أبا محمد الخزامى» يوماً قائلا : «أترضى أن يقال لك بخيل»؟ فأجابه «الخزامى»: «لا أعدمنى الله هذا الاسم، إذ لا يقال لى بخيل إلا وأنا ذو مال، فسلم لي المال، وسمنى بأى اسم شئت».

وحين يرد عليه «الجاحظ» بقوله :«ولا يقال لك سخى إلا وأنت ذو مال، فقد جمع الله لاسم السخاء : المال والحمد، وجمع لاسم البخل: المال الذم، فقد اخترت أخسهما وأوضعهما».

وهنا تبدو فلسفة «الخزامى» في مفهومه ومحاولة إفهامه الجاحظ وغيره لكلمة البخل، إذ يقول : «بينهما- البخل والسخاء فرق عجيب. ففي قولهم «بخيل»: سبب لمكث المال في ملكى، وفى قولهم «سخى»: سبب لخروج المال عن ملكى.

واسم «البخيل» فيه حزم، واسم «السخى» فيه تضييع وحمد، والمال نافع ومكرم لأهله، والحمد ربح وسخرية، وسمعة وطرمزة[1]، وما أقل غناء الحمد عنه إذا جاع بطنه، وعرى ظهره، وضاع عياله وشمت به عدوه»[2].

---

(١) طرمزة : مفاخرة وصلف.

(٢) العقد الفريد جـ٦ ص ١٩٧ والبخلاء ص ٩١ طبعة بيروت ١٩٨٥.

وأعتقد أن في بدئنا بهذا الحوار ما يظهر لنا مدى الحرص حتى على كلمة «البخل» وجلال قدرهاعند أفراد هذه الجماعة، مع نفرة أي فرد معتدل الطبع من لصوقها به، أو اتصافه بها.

وعلى آية حال فهى تكشف لنا عن مدى رسوخ عقيدة «الخزامى» وأمثاله فى الإمساك بالمال، ورضائه التام عن مذهبه في البخل، وزهوه بما يجلبه له اسم البخيل من الحكمه والغني معا كما يتصور.

ثم لنستمع إلى صوت «سهل بن هارون» وهو يرد علي من سأله : «هبنى مالاً مرزئة عليك فيه؟ فيقول له : «وماذاك يا بن أخى"؟ فيقول السائل : درهماً واحداً.

فيقول «سهل»: «يابن أخى، لقد هونت الدرهم وهوطايع الله في أرضه الذى لا يعصى، والدرهم - ويحك- : عشر العشرة، والعشرة : عشر المائة، والمائة: عشر الألف. والألف : دية المسلم. ألا ترى يابن أخى إلي أين انتهاء الدرهم الذى هونته ؟ وهل بيوت المال إلا درهم على درهم؟[1].

فسهل بن هارون كما نرى يعكس على السائل مفهومه، ويبدى له منزلة القليل من المال وأنه الأصل للكثير، ثم يوضح للسائل غير العالم بأهمية الدرهم ودوره بأنه لولا الحرص علي «المؤاخاة» بين الدراهم ما دفعت ديات القتلى من المسلمين، ولا وجدت من أجل المحتاجين بيوت المال.

---

(١) العقد الفريد جـ ٦ ص ١٩٦.

وهو بهذا لا يكتفى بإبعاده عنه، وحرمانه من العطاء فحسب، وإنما يوجهه إلى المكان الذى ينبغى عليه الذهاب إليه والسؤال، حيث لا يحرم هناك من العطاء وفى هذا كما نرى ما يحول به بينه وبين العودة إليه مرة أخرى.

ويفصح لنا «ابن التوأم» عن قصده في حرمان المحتاجين وفلسفته في عدم الإعطاء بقوله ناصحاً ومعلماً :« ..إذا أعطيت السائلين مالك، صارت مقاتلك أظهر لأعدائك من مقاتلهم».

فقد ختم حب المال على قلب «ابن التوأم»، فبدت منافس الرجاء فيه، هى مواطن الضعف عنده، وتراءى له ملتمسو الحاجة من السائلين رمزاً لمن يتربصون به من الأعداء، ووسائل يتسلل بها الكارهون إلى مقاتله بقصدهم إياه وطلبهم منه.

ومن هنا نجده يصبغ «فضيلة» الحرمان - فى نظره- بهذا اللون المنطقى العجيب من الحديث، فيقول :« ...إن مالك لا يسع مريديه، ولا يبلغ رضا طالبيه، ولو أرضيتهم بإسخاط مثلهم لكان ذلك خسراناً مبينا، فكيف، ومن يسخط أضعاف من يرضي، وهجاء الساخط أضر من فقد مديح الراضى ؟

كما يدلل علي فساد طوية المعطى من السائلين وتخليه عمن أعطاه إن دعت الحاجة إلي نصرته، فيقول : « .. وعلى أنهم لو اعتوروك بمشاقصهم، وتداولوك بسهامهم لم تر ممن أرضيته في إسخاطهم أحداً يناضل عنك، ولا يهاجى شاعراً دونك، بل يخليك غرضاً لسهامهم ورديئة لنبالهم.

ثم يقول وما كان عليه لو أرضاهم؟ فكيف يرضيهم ورضى الجميع شئ لا ينال وقد قال الأول: وكيف يتفق لك رضى المختلفين؟ كما قالوا :«صنع الجميع أرضى للجميع»[١].

فهو يبدو فى قوله وكأنما نسج بحروفه. أو بتشريعه الغريب لحرمانهم: ستاراً من ظلماته النفسية استطاع أن يحول بها بينه وبين من كان يظن فيه رجاء، أو يلتمس فائدة ونفعا.

وكما يبدو أيضا أن «ابن التوأم» هذا كان مطبوعاً على الحرمان، وأحد المبرزين في الدعوة إلى وجوب التخلى عن المحتاجين، حتى إنه ليفضل الكارثة تحل به فتودى بكل ماليه من المال، عن إعطائه المحتاج شيئا منه، إذ يقول :«..ولأن تفتقر بجائحه نازلة، خير لك من أن تفتقر بجناية مكتسبة».

وهو يقصد بالجناية المكتسبة : مد العون لطالبه، أى أنه لا يبالى بالمزيد من حرمان نفسه، مادام ذلك مؤديا إلى حرمان غيره.

كما يقول فى هذا المقام أيضا :«ومن كان سببا لذهاب «وفره»[٢] لم تعدمه الحسرة من نفسه، واللائمة من غيره، وقلة الرحمة، وكثرة الشماته، مع الإثم الموبق والهوان على الصاحب»[٣].

فمنهجه في الحرمان يقضى بعدم الإقدام على مثل هذا الصنيع[٤]، إيمانا بسوء العاقبة حيث الشعور بالحسرة من النفس،

---

(١) البخلاء ص ١٧٥ تحقيق : طه الحاجرى.

(٢) وفره : يقصد ماله.

(٣) البخلاء ص ١٨٩.

(٤) الصنيع : يقصد الإعطاء.

والتصدى للوم الغير، وكثرة شماتتهم به، وتوقعه البعد عن رحمة الله لارتكابه هذا الإثم الكبير وهو : قضاء الحاجة لمن قصده.

ويقول أيضا : «لا بقاء للمال على قلة الرعى وكثرة الحلب، فكس فى أمرك، وتقدم في حفظ مالك، فإن من حفظ ماله فقد حفظ الأكرمين: الدين والعرض»[١].

فللمال فى نظر «ابن التوأم» موجبات حفظه ودواعى صيانته، وعلى هذا، فمن لم يراع قلة دخله، وكثرة مصارفه، فقد أضاع كل شئ، لأن فى الحفاظ على المال حفاظاً على الدين والعرض، إذ يدفع به عنهما الفتن، ويقيهما من ذل العيش، ونكد الفقر، ودواعى الحاجة فى الحياة.

ويبدو أن ابن الرومى قد راقه هذا المنهج فصاغه في البيتين التاليين، معلناً بهما : أن شحه بالمال وحمايته له - بعدم الإنفاق، وحرمان المحتاجين منه - يعد وجاء لعرضه، وصيانة من غوائل الزمن وعوادى الحاجة إليه، وذلك إذ يقول :[٢]:

إذا لم يكن عندى سوى ما يكفنى
فشحى عليه مثل شحى على عرضى
لأنى متى أتلفته احتجت حاجـــة
تزيل مصون العرض في طلب القرض

---

(١) المصدر السابق ١٩١.

(٢) ابن الرومى : حياته من شعره - للعقاد- ص ١٣٤ الطبعة السادسة ١٩٧٠.

ودون شك فإن السابق إلى هذا المعنى هو :«النمر بن تولب».
«الجاهلى- الذى جعل إنفاقه للمال وقاية لحسبه وحماية لعرضه إذا ما دفعته إلى ذلك ضرورات الحياة، وهو ما نجده فى قوله :(١)

أقى حسبى به ويعز عرضى ... على إذا الحفيظة أدركتنى
وأعلم أن ستدركنى المنايا ... فإلا أتبعها تتبعنى

وإن جعل «ابن التوأم» حمايته للمال وشحه به من أجل حمايته للأكرمين - الدين والعرض - فستبدأ «الحسب» لدى «ابن تولب» الجاهلى - بالدين.

أما «ابن الرومى» فيبدو تقصيره عنهما، إذ آثر حماية المال والشح به لحماية عرضه دون غيره، ولعل افتقاد «ابن الرومى» للحسب جعله لا يبالى به، كما أنه يعلم يقيناً أن للدين رباً يحميه.

هذا مع اتفاق الثلاثة في ادعائهم بأن حماية المال والحرص عليه من أجل حماية العرض وعزته، والله أعلم بالنوايا.

وكان سهل بن هارون - فوق ما ذكرناه من هيامه بالمال وحرمان الآخرين منه - يستأنس في هذا القول بقول الحصين بن منذر :«وددت لو أن لى مثل أحد ذهباً لا انتفع منه بشئ وعندما سئل : وماذا يعود عليك من ذلك. قال : لكثرة من يخدمنى عليه»(٢).

---

(١) طبقات فحول الشعراء - لابن سلام - ص ١٦١ تحقيق محمود شاكر مطبعة المدنى بالقاهرة.

(٢) البخلاء - تحقيق الحاجرى - ص ١٥.

كما سبقت الإشارة إلي تفضيل سهل للمال على العلم، وعلى القوت، إذ يقول في «فضل المال على العلم» :«حالهما هى الفاصلة بينهما، وكيف يستوى شئ ترى حاجة الجميع إليه- المال - وشئ يغنى بعضهم فيه عن بعض- العلم؟»[١].

إنها كما نرى : غشاوة الحبيب «الصامت» على بصر وبصيرة المحب «الناطق».

فلسفة الحرمان للنفس :

ربما لا يجد المرء ما يدهشه من سلوك هذه الجماعة وحرصها على حرمان ذوى الحاجة من مالهم، والتماسهم في سبيل ذلك ما يدعم منهجهم أووجهة نظرهم غيرالمألوفة لسواهم.

ولكن المرء نفسه لا يستطيع بحال من الأحوال أن يخفى دلائل دهشته وعجبه من ذلك السلوك الذى يجسد شدة حرصهم على حرمان أنفسهم وذواتهم من طيبات الحياة، والتمتع بما أفاء الله عليهم فيها من الخيرات والنعم، فضلا عما لهم فى هذا اللون الإنسانى الشاذ من المبررات أو الحكمة والفلسفة الخاصة بهم، وهو الأمر الذي هيأهم لحياتهم تلك، أو هيأ تلك الحياة لهم آنذاك.

ويبدو أن «ابن غزوان»[٢] كان يدرك تماما ما تعنيه نظرات الاشمئزاز والتعجب التى كان يلقاها من الأفراد والجموع الآخرين،

---

(١) المصدر السابق ص ١٢ ومابعدها.

(٢) اسماعيل بن غزوان : كان أحد أعلام البخل المشهورين بالانتصار له، وكان من أصحاب الكندى (صاحب البيوت) كما كان صديقا لأبى سعيد الثورى، وبابن أبى شيخ كاتب جعفر بن يحيى البرمكى.

حين أجاب عن «لغة العيون» هذه بقوله لأصحابها: «... تنعمتم بالطعام الطيب، وبالثياب الفاخرة، بالشراب الرقيق، وبالغناء المطرب، وتنعمنا بعز الشروة، وبصواب النظر فى العاقبة، وبكثرة المال، والأمن من سوء الحال، ومن ذل الرغبة إلي الرجال، والعجز عن مصلحة العيال، فتلك لذتكم، وهذه لذتنا ، وهذا رأينا في التسلم من الذم، وذاك رأيكم في التعرض للحمد.

ثم يقول :«وإنما ينتفع بالحمد: السليم الفارغ البال، ويسر باللذات الصادق الحس، فأما الفقير: فما أغناه عن الحمد وأفقره إلي ما به يجد طعم الحمد.

والطعام الذي أثرتمره يعود رجيعا، والشراب يصير بولاً، والبناء يعود نقضا، والغناء ريح هابة ومسقط للمروءة، وسخافة تفسد، ورنة تسير.

فلذتكم فيما حوى لكم الفقر ونقص المروءة، ولذتنا فيما حوى لنا الغنى وبنى المروءة، فنحن فى بناء وأنتم فى هدم، ونحن فى إبرام وأنتم فى نقض، ونحن فى التماس العز الدائم مع فوت بعض اللذة وأنتم فى التعرض للذل الدائم مع فوت كل المروءة» (١).

ونعتقد أن «ابن غزوان» قد استطاع بهذا التعبير الموجز، ومقارناته المنطقية الغريبة أن يرسم المنهج الفكرى الدقيق لتلك الجماعة، وأن يظهر - من وجهة نظرهم - ذلك التباين العجيب، بين مفهوم السعادة والنعيم لأفراد الجماعتين.

---

(١) البخلاء - ص ١٠٠ تحقيق الحاجزى.

وقد بدا من قوله أن كلا الجماعتين على طرفى نقيض بفكره أمام مقومات الحياه.

وأن ما يحسبه غير البخيل شذوذاً فى المعاملات والسلوك يؤمن البخيل بأصالته ووجوب الالتزام به، وما يتحلى به غير البخلاء من المحامد والمتع يتراءى لتلك الفئة مواطن ذم، وفساد، وإسقاط للمروءة.

وما نشك في أن «ابن غزوان» مجانب للصواب فى هذا الحكم المتطرف الذى قضى به على غير المقتنعين بمعاملات وسلوك أمثاله.

فليس الجميع على درجة واحدة من الثراء، أو الإسراف المؤدى إلى الفقر وسراديبه المظلمة، أو المسقطعة للمروءة كما يفهم من قول «ابن غزوان» وإلا فأين المعتدلون فى نفقاتهم وسبل معيشتهم؟ وأين القانعون بأرزاقهم وثمرات كدهم مع قلتها ؟ وأين الزاهدون في عرض الدنيا ؟ وأين من يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف؟ وأين طلاب العلم والعلماء غير الراغبين إلا فيما يساعدهم على أداء دورهم فى الحياة؟ وأين غير هؤلاء وهؤلاء ممن لا يلهيهم المال ولا يشغلهم الحرص عليه أمثالهم ؟ ثم وأين الإيمان بصانع الأحداث، ومقدر الأرزاق ومن بيده وحده مقاليد الأمور ؟

إن الشعور بالسعادة أو باللذة لا يكمن في حرمان النفس من كل طيبات الحياة ومتعها - مطعماً، أو مشرباً، أو ملبساً، أو مسكناً، أو طرباً- كما يدعى «ابن غزوان» ومن على شاكلته، وإلا فسدت كل المقاييس للأمور فى الحياة، واختلطت أسباب السعادة

بأسباب الشقاء. وصدق الله العظيم :«قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق»[١].

كما أنه ليس صحيحا أن عاشق المال والحريص على حمايته وعدم الانتقاص منه فارغ البال كما يدعى «ابن غزوان» وأمثاله، فمن البدهيات أن الحرص على حماية المال وعدم الانتقاص منه - وهذا من أخص صفات البخلاء- يدفع إلى دوام اشتغال البال به لا فراغه منه. فوق أن هذا اللون من حرص البخلاء على المال واشتغال بالهم به لا يقارن مطلقا بحرص الفقير أو اشتغال باله من أجل الطعام، أو الكساء، أو المأوى، لأن اشتغال بال الفقير بهذه الأمور وأمثالها موقوت بقضاء حاجته منها، وهو لا يلزم نفسه غالبا بزمن محدد للحصول على ما يبتغيه، فهو راض حتى يحقق بسعيه رجاءه.

أما البخيل فحرصه على المال دائم، واشتغال باله بزيادته.. والتفنن في حرمان غيره، أو كيفية التقتير على نفسه وعلى أولاده لا يقف عند قدر، ولا يحد بزمان.

وعلى كل، فإن كلمات «ابن غزوان» - في مجملها - تظهر بوضوح بعض الجوانب النفسية التى تشكل أبرز المؤشرات فى فلسفة ومنهج هذه الجماعة حيث لا تقف عند حرمان غيرهم، من ذوى الحاجة فحسب، وإنما تتجاوز ذلك إلى حرمان أنفسهم وذواتهم أيضا من ثمار كدهم وحصيلة عنائهم، وكأنهم ما خلقوا إلا للشقاء بجمع هذا المال مرة، ثم الشقاء بالحفاظ عليه باقى حياتهم لمن سيرثه، ولا ندرى! كم من الأجيال يمكن أن تتوارث هذا الشقاء - المزدوج- لـــو

---

(١) سورة الأعراف آية ٣٢.

حرص الأبناء على تنفيذ الوصايا والنصائح لأمثال هؤلاء الأباء ؟ ثم إلي من فى النهاية سيئول هذا المال؟ أإلى من أحب هذا البخيل ؟ أم إلي من كان يكرهه ويتربص به ؟ فسبحان من هيأ كل إنسان لما خلقه له.

إن من ينظر إلي الأقوال الأدبية المأثورة لهذه الجماعة وما تنطوى عليه من الحكمة أو الترجمة الصادقة عن واقعهم وتجاربهم في حرمان أنفسهم من أخص ضرورات معيشتهم، ليدفعه ذلك إلي الدهشة والعجب حتما.

فهذا :«عبد الرحمن الثورى» مع كثرة ماله، وقدرته على التمتع وإمتاع أبنائه بأشهى المأكولات والمشروبات، لا يكتفى بحرمان نفسه وإياهم منها فحسب، وإنما يتطلب من أبنائه :التعود على اقتيات مالا يصلح أن يكون قوتاً للآدميين، إذ نجده يقول لعياله [1]:«... لا تلقوا نوى التمر والرطب، وتعودوا ابتلاعه، وخذوا حلوقكم بتسويغه»

أما حكمته أو فلسفته فى هذا، فتبدو في قوله :«... فإن النوى يعقد الشحم فى البطن، ويدفئ الكليتين بذلك الشحم».

وإن كنا نعتقد أنه لا يلتمس الصحة بعقد الشحم أو إدفاء كلى الأبناء بابتلاع النوى كما يدعى، بقدر ما يشغل أذهان عياله عن التفكير فى تناول التمر، أو الرطب مرة أخرى في العام نفسه على الأقل.

---

(١) البخلاء - تحقيق الحاجرى - ص ١٠٣ ومابعدها. وص ١٤١ طبعة بيروت ١٩٨٥.

ولقد كان «الشورى» ينصح أبناءه أيضا بأكل «الباقلاء»[١] بقشرها، ويقول لهم: مهوناً مثل هذا الأمر عليهم: «.. والله لو حملتم أنفسكم على البذر والنوى، وعلى قضم الشعير، واعتلاق «القت»[٢] لوجدتموها سريعة القبول».

أما عن الخبز، وهو ما يعد في نظره أشهى وأغنى المأكولات، فمما يحكيه عنه معاصره: «الخليل السلوتى» أنه كان فرحاً بعدما تسللت الحمى إلي جسده ثم إلى جسد ابنائه، وأن ذلك قد ساهم فى عدم تناولهم الخبز عدة أيام، مما جعله يربح كيلة من الدقيق، فجعل يعيد النظر إلى ماربحه ويقول: «لو كان منزلى سوق الأهواز... لرجوت أن أستفضل كل سنة مائة دينار».

وما نرى فيمن يسعده المرض له ولأبنائه رجاء ادخار ثمن الخبز، ويدعو ابناءه أو يجبرهم على تناول مثل هذه الأشياء غير المألوفة فى طعام أفقر الفقراء من الآدميين إلا مفطوراً على الشقاء، ومجبولاً على حرمان نفسه من الخير، حتي وإن تضمن مذهبه أو دعوته إلي ما يبتغيه: ضروب الحكمة، أو شفت أقواله عن أسباب السعادة فى الحياة.

ولنتأمل فى بعض نصائح «الكندى» وهو يقول لعياله داعياً إياهم إلى مقاومة شهوة التطلع إلى الفاكهة والرغبة فى تناولها حتى

---

(١) الباقلاء: نبات عشبى من الفصيلة القرنية.

(٢) القت: كلا عشبى بعض يزرع وبعضه ينبت بريا والحقول.

تنقضى أيامها :[1]، «... اصبروا عن الرطب عند ابتدائه وأوائله، وعن باكورات الفاكهة».

وفلسفته فى هذا :«أن للنفس عند كل طارف نزوة، وعند كل هاجم بدوة، وللقادم حلاوة أو فرحة، وللجديد بشاشة وغرة، فإنك منى رددتها ارتدت، ومتي ردعتها ارتدعت، والنفس عزوف، ونفور ألوف، وما حملتها احتملت، وإن أهملتها فسدت فإن لم تكف جميع دواعيها، وتحسم جميع أطرافها فى أول ردة، صارت أقل عدداً، وأضعف قوة، فإذا أثر ذلك فيها، فعظها فى تلك الباكورة بالغلاء والقلة، فإن ذكر الغلاء والقلة حجة صحيحة، وعلة عاملة فى الطبيعة، فإذا أجابتك فى الباكورة فسمها مثل ذلك فى أوائل كثرتها، واضرب نقصان الشهوة ونقصان قوة الغلبة بمقدار ما حدث لها من الرخص والكثرة، فلست تلقى على هذا الحساب من معالجة الشهوة في غدك إلا مثل ما لقيت منها فى يومك، حتى تنقضى أيام الفاكهة وأنت على مثل ابتداء حالك وأول مجاهدتك لشهوتك، ومتى لم تعد أيضا الشهوة فتنة، والهوى عدوا : اغتررت بهما، وضعفت عنهما». وائتمنتهما على نفسك، وهما أحضر عدو، وشر دخيل».

فانظر، كيف تدرج فى تهوين الحرمان لأبنائه، وكيف بدا حريصا على الحيلولة دون اشتهائهم للرطب أو الفاكهة أيام يكون الاشتهاء ورغبة النفس فيهما، وكيف يسر لهم معالجة الشهوة إلي الفاكهة بتذكير النفس أيام الباكورة بالغلاء والقلة، فلذلك أثره فى الطبيعة، وذلك لأن الفاكهة إذا ما أخذت في الكثرة تكون الشهوة إليها قد أخذت فى النقصان.

---

(١) انظر أقوال الكندى ص ٩٢ ومابعدها من البخلاء - تحقيق الحاجرى.

وهكذا تبقى المجاهدة حتى تنقضى أيام الفاكهة وهم على مثل حالهم، وعلى أول مجاهدتهم لشهوتهم، فالشهوة فتنة، والهوى عدو، كما يقول.

ثم يزين لهم نتيجة انصياعهم لنصحه، واقتناعهم بحكمته وسداد رأيه، فيقول لهم شاحذاً عزمهم، ومهيئا الميدان لسباق نفوسهم في ساحة الحرمان :- «... اضمنوا لى النزوة الأولى أضمن لكم تمام الصبر، وعاقبة اليسر، وثبات العز فى قلوبكم، والغنى في أعقابكم، ودوام تعظيم الناس لكم».

وما إخال «والدا» يضمن مثل هذه النتائج لأحبائه إلا واحداً الطاعة والانقياد التامين من أبناء تمرسوا منذ الصغر على نهجه، ولم يروا فيما نراه نحن حرماناً للنفس غير أمارات الرغد وسمات النعيم فى الحياة كما يصورها لهم والدهم «الرحيم».

ثم لننتقل إلى لون جديد من الحرمان وفلسفته مع أحد الرواد فى هذا المقام وهو «أبو سعيد المدائنى»(٢) ذلك الذى ضن على نفسه بنظافة جسده، حتى لا يتعرض لخلع ثوبه وغسله، ثم لا يترك شيئا من دلائل حكمته وفلسفته يحول بينه وبين إظهار الصواب فى مذهبه، حتى نجده فى النهاية مؤثرا البقاء علي هيئته المقززة، وثوبه عديم اللوم، فذلك - فى نظره - هو الحزم والغنم، لا الوهن والغرم.

فمما يذكره صديقه «أحمد المكى» وهو أحد المعجبين بطرفه وأحاديثه أنه قال مرة «لأبى سعيد المدائنى»... والله إنك لكثيـــــر

---

(١) انظر أقوال الكندى ص ٢.

(٢) أبو سعيد المدائنى : كان من كبار المتعاملين بالربا، ويذكر الجاحظ أنه كانت له حلقة يجلس فيها مع عملائه.

المال، وإنك لتعرف ما نجهل، وإن قميصك وسخ، فلم لا تأمر بغسله» ؟.

قال أبو سعيد :« .. فلو كنت قليل المال وأجهل ما تعرف، كيف كان قولك لى ؟ إنى قد فكرت فى هذا منذ ستة أشهر، فما وصح لى بعد وجه الأمر فيه.

أقول مرة : الثوب إذا اتسخ أكل البدن كما يأكل الصدأ الحديد، والثوب إذا ترادفه العرق وجف، وتراكم عليه الوسخ وليد، أكل السلك وأحرق الفزل، هذا مع نتن ريحه وقبح منظره.

وبعد، فإنى آتى أبواب الغرماء، وغلمان غرمائى جبابرة، فما ظنك بهم إذا رأونى فى أطمار وسخة، وأسمال درنة، وحال حداد ؟ جبهوا مرة، وحجبوا مرة، فيرجع ذلك علينا بمضرة من إصلاح المال، وأن ينفى عنه كل ما أعان على حبسه، مع ما يدخل من الغيظ، ويلقى من كان كذلك من المكروه.

فإذا اجتمعت هذه الخواطر : همت بغسلها، فإذا همت به عارضنى معارض يوهمنى أنه أتانى من الحزم ومن قبل العقل فقال : أول ذلك الغرم الذى يكون في الماء والصابون والجارية إذا ازدادت عناء ازدادت أكلا، والصابون نورة[١]، والثورة تأكل الثوب وتبلى الخز، ولا يزال الثوب على خطر حتى يسلم إلى القصر[٢]، والرق، ثم

---

(١) النورة : أخلاط من أملاح الكالسيوم وغيره.

(٢) القصر : إزالة اللون من ألياف النسيج أو تخفيفه.

إذا ألقى علي الرسن [١]، فهو بعرض الجذبة، والنقرة، والعلق [٢]، ولابد من الجلوس يومئذ فى البيت.

ومتى جلست فى البيت فتحوا علينا أبواباً من النفقة، وأبواباً من الشهوات، والثياب لابد لها من دق، فإن نحن دققناهم في المنزل قطعناهم، وإن نحن أسلمناها إلى القصار [٣] فغرم علي غرم، وعلى أنه أنزل بها من المكروه ما هو أشد.

وما جلست فى المنزل قط إلا أرجف بى الغرماء، وادعوا على الأمراض والأحداث وفى ذلك فساد لهم والتواء وطمع لم يكن عندهم.

فإذا أنا لبستها وقد ابيضت وحسنت وجفت وطابت، تبينت عند ذلك وسخ جسدى وكثرة شعرى، وقد كان بعض ذلك موصولا ببعض ففرقته، فاستبان لى ما لم يكن يستبين، واكترثت لما لم أكن أكثرت له، فيكون ذلك مدعاة إلي دخول الحمام، فإن دخلته فغرم ثقيل، مع المخاطرة بالثياب، ولى امرأة جميلة شابة، إذا رأتنى قد اطليت وغسلت رأسى، وبيضت ثوبى، عارضتنى بالتطيب ويلبس أحسن ثيابها وتعرضت لى، وانا فحل، والفحل إذا هاج لم يرد رأسه شئ فإذا أردت مواقعتها ورأت حرصى، نثرت على الحوائج نثراً، ثم احتجنا إلى تسخين الماء. وأشد من هذا كله أن تعلق، فتحتاج إلى ظئر [٤] فتقع فى ما لا غاية له» [٥].

---

(١) الرسن : يقصد به الحبل.

(٢) العلق : بفتح العين واللام : كل ما علق.

(٣) القصار : المبيض للثياب.

(٤) الظئر: المرضعة لغير ولدها.

(٥) انظر أقوال «المدائنى» ص ١٣٩ ومابعدها من البخلاء - تحقيق الحاجرى.

وحسبك أيها القارئ الكريم أن تعيد النظر إلى كلماته الأولى في الرد على صديقه: «المكى» لترى كيف أنه لم يكن غافلا عن مثل هذا الأمر، لولا مخاطره، وكيف، أنه وجد فيه من الأضرار ما يفوق النفع، ومن سوء العاقبة ما يبرر له السلامة بالبعد عن الإقدام إليه منذ البدء.

فأثر حرمان نفسه من نظافة جسده، وثوبه، مقتنعاً بصواب رأيه وسلامة منهجه في سلوكه، وقدرته على المواجهة الجادة والمعالجة الحكيمة لما يخالف طبعه، دون مبالاة بطباع الآخرين.

أما «سهيل بن هارون» فلم يكن أفضل حالاً من المدائنى، إذ كان يرى أن أحسن الثياب: المرقع، ويترجم حكمته أو فلسفته فى هذا بقوله :« ... إن ترقيع الثوب يجمع مع الإصلاح التواضع، وخلاف ذلك يجمع مع الإسراف التكبر» (١).

فهو يتصور أن في حرمان النفس من سلامة الثوب وجدته تواضعاً وفى نظافته والتنعم به إسرافاً وتكبراً.

ويرد فى رسالته على «محمد بن زياد» وأبناء عمومته: حين عابوه بترقيع ثوبه، وخصف نعله، فيبدى لهم ما خفى عليهم أمره من فلسفة فعله هذا بقوله :« .. إن المخصوفة أبقي، وأوطأ، وأوقى، وأنفى للكبر، وأشبه بالنسك، وأن الترقيع من الحزم، وأن الاجتماع مع الحفظ، وأن التفرق مع التضييع».

---

(١) المصدر نفسه ص ١٩ ومابعدها.

ثم بباهى بسلامة مذهبه هذا، بما صح من أن الرسول عليه الصلاة والسلام، كان يخصف نعله، ويرقع ثوبه، وأن عمر بن الخطاب: كان فى ثوبه رقاع من أدم، وأن سعدى ابنة عوف كانت، تلفق إزار زوجها طلحة (وهو جواد قريش)».

ولا يفوتنا أن نشير فى هذا المقام إلى أن الرسول عليه السلام لم يفعل ذلك شحاً، أو إيثاراً وحبا للمال. فرسالة الخير التى هيئ لتحقيقها بين البشر تحول دون إتهامه عليه السلام بهذا اللوم من الحرص أو التفرغ لمثل هذه الأمور الهينة، وإنما فعل ذلك عليه السلام تشريعاً للتواضع، وقدوة للامتثال والرضا بالواقع إن فقدت حيلة المرء لامتلاك شئ آخر، أو تعذر الحصول على سواه.

وعلى دربه عليه السلام كانت خطا وحياة عمر بن الخطاب من بعده، إذ كان يؤثر الانقياد والامتثال لا التشريع كقائده الموحى إليه عليه الصلاة والسلام، بالإضافة إلى حرصه رضى الله عنه على مماثلة باقى الرعية دون زيادة على أدناهم.

ولعل فيما آثر عنه - رضى الله عنه - ما يوضح لنا سر فعلته هذه، حيث تأخر يوما على الناس فى يوم الجمعة، فلما وصل المسجد وصعد المنبر قال لهم - بعد حمد الله والصلاة على رسوله عليه السلام - أيها الناس : والله ما حبسنى - أخرنى - غير ثوبى هذا، فقد انتظرته حتى جف بعد غسله، وليس لى ثوب غيره»[1].

---

(١) انظر : كتاب «أمير المؤمنين : عمر بن الخطاب»- لابن الجوزى-جـ٣ ص ١٧٢ تحقيق : النشرتى، وفرغلى، وعبد الحميد مصطفى، مطابع الأهرام ١٩٩٤.

وعلى هذا، فما نظن مجرد ظن أن الرقاع في ثوب «عمر» كانت عن بخل، أو ضن منه بشراء غيره مع قدرته على ذلك، وإنما هو: سلوك القدوة، والامتثال والتشريع الحكيم.

وحتى استئناس «سهل بن هارون» برواية «سعدى» وزوجها «طلحة» نراها حجة عليه، وليس كما تصور، إذ يحتمل أن يكون جود أو إيثار طلحة لغيره من المحتاجين قد أودى بعزيز ثيابه وأحسنها، فلم يبق له آنذاك سوى ما لفقته له زوجه «سعدى».

وفوق هذا، فلا يستطيع «سهل بن هارون» أن يزعم أن ما شفع به قوله من الوقائع المفردة للرسول الكريم، ثم لعمر بن الخطاب، ثم لطلحه، كان للمال فيها أدنى أثر على قلب الرسول العظيم عليه السلام، أو على قلب الفاروق عمر، أو على قلب الصحابى الجليل طلحة يشبه من قريب أو بعيد ذلك الأثر أو السلطان المهيمن على قلب «سهل بن هارون» حتى بدا للمال عبداً، يحدد من أجله سلوكه، ووقع خطاه، ومذهبه فى الحياه.

ولقد كان خصف النعال القديمة وحرمان النفس من شواء النعال، أو الأحذية الجديدة، أو المشى فيها : من أبرز مميزات تلك الجماعة.

«فعبد الرحمن الثورى» يقول فى مجموعة من وصاياه عن الإصلاح ومذهبه فيه :« .. أول الإصلاح - وهو من الواجب - خصف النعل، واستجادة الطراق[1]، وتشحيمها فى كل يوم، وعقد ذؤابة

---

(١) الطراق (بالطاء المشدودة المكسورة) : الطبقة أو الطبقات من الجلد تطبق على مثلها. كل طبقة : طراق.

الشراك[١]: من زى النساك، لكيلا يطأ عليه إنسان فيقطعه، ومن الإصلاح الواجب : قلب خرقة القلنسوة إذا اتسخت وغسلها من اتساخها بعد القلب».

وهو فى حرصه علي اتساخ خرقة القلنسوة بعد قلبها (أى اتساخها من الجهتين قبل غسلها) لا يبعد كثيرا عن مذهب المدائن السالف في هذا المقام. وإن رأى الثورى أن الغسل فى مثل هذه الحالة من الإصلاح الواجب كما يقول.

أما الجزء الأول من قوله، والذى يرى فيه أن أول الإصلاح فى نظره هو :«خصف النعل» واستجادة طبقات الجلد المختارة لذلك، وتشحيمها، وعقد ما يتدلى من شراكها حتى لا يقطع»، فهو كما نرى يعد غاية في الحرص على صيانة حذائه، والإبقاء على سلامته بما استمده من واقعه وخبرته في حياته.

غير أن ذلك على ما يبدو كان أقل جدوى مما يأمل ويرجو لحذائه من طول العمر، إذ نجد صديقه «السلوتى» يقول عنه :«.. وقد رأيته زماناً من الدهر، ما رأيته قط إلا ونعله في يده، أو يمشى طوال نهاره في نعلٍ مقطعة العقب، شديدة على صاحبها».

وكان يرد على من قال له :«لم تسير هكذا ومالك كثير؟« بقوله : «أفمن كان ماله كثيرا لابد له من أن يفتح كيسه للنفقات وللسراق...؟»[٢].

---

(١) الشراك (بالشين المشددة المكسورة): سير النعل الذى يكون على ظهر القدم.

(٢) البخلاء - تحقيق الحاجرى - ص ١٠٤ ومابعدها.

«والثورى»يقصدبالسراق:«المحتاجين»،كمايقصد بالنفقات: شراء نعل جديدة إذا ما بلى نعله ذاك بعد أن يفكر فى السير به، وهو ما يراه مجانبا للصواب فى مذهبه الإصلاحى والدعوة إليه.

ومما يذكره «أبو اسحاق : إبراهيم بن سيار (النظام) عن جاره «المروزى» : أنه كان لا يلبس خفا ولا نعلاً، إلى أن يذهب موسم النبق اليابس، لكثرة النوى فى الطريق والأسواق، مخافة أن تنجرد نعله أو تنقب.

كما لا يغيب عن أذهاننا ما ذكرناه من قبل عن «أبى محمد الخزامى» (فى مقام حرمان النفس من الطيبات، حرصاً علي المال، وتزكيه له على النفس) : أنه كان لا يتبخر إلا فى منازل أصحابه، فإذا كان جديد القميص أو مغسوله، يرفض التبخر مخافة أن يسود دخان العود بياض قميصه، فإذا اتسخ القميص، وأتى له بالبخور، لم يرض بالتبخر حتى يدعو بدهن فيمسح به صدره وبطنه، وداخلة إزاره، ثم يتبخر ليكون أعلق للبخور كما أسلفنا القول فى هذا.

فما أتى له من الآخرين يقبله ويحسن استغلاله، واستقصاء وجوه نفعه له، وما عدا ذلك مما تطيب له نفسه وتستهويه غير مقبول، ما دام يستلب شيئا من ماله، أو يفوت عليه فرصة زيادته.

وهذا المنهج هو ما تشف عنه أيضا كلمات «سهل بن هارون» في رسالته إلى محمد بن زياد وأبناء عمومته، ورده عليهم بماعابوه به من الدعوة إلى وجوب الحفاظ على المال وتفريقه في الأحراز والأماكن، حيث لا أمان عليه من الصروف والحدثان. فيقول لهم

ناصحاً ومرشداً إلي ما يجدر بهم فعله من اليقظة في الإنفاق، والحرص والحماية لما بأيديهم من المال :« .. وقلت لكم - بالشفقة منى عليكم، وبحسن النظر لكم، وبحفظكم لأبائكم، ولما يجب في جوازكم، وفى مما لحتكم، وملابستكم- أنتم فى دار الآفات، والحوائج غير مأمونات، فإن أحاطت بمال أحدكم آفة، لم يرجع إلى بقية، فأحرزوا النعمة باختلاف الأمكنة، فإن البلية لا تجرى في الجميع إلا مع موت الجميع» (١).

ولانشك فى أن هيام «سهل بن هارون» بماله، يكمن وراء دعوته في مذهبه إلى اكتنازه، والتحفظ عليه بتفريق أماكنه، فشقاؤه بحرمان نفسه وغيره منه في يومه، يجعله من أجل غد لا يعلم جوائحه، ومبالغاته فى الحرص عليه، بتعدد مواطن حمايته، تجسدها فطنته وإعداده لما قد يرمى به من أحداث الدهر.

وكما يبدو، فإن منهجه في سلامة المال من النقصان يعد صدى طبيعيا لتمرسه الفعلى، وتطبيقاً عمليا لسلوكه مع الآخرين، إذ يرى فى خروجه عن هذا النهج بالإنفاق منه، وتحكيم السرف فيه : إخرجاً له من يديه، وتحويلا به إلى ملك غيره، وتسليطا للشهوات عليه».

فلا مبرر لغير جمعه، ومنعه، حتى عن نفسه ان استطاع، لو طال به العمر، وتقوس ظهره، ورق عظمه، ووهنت قوته، حيث لا يستطيع آنذاك أن يسترده ممن لا يرده، ولا يجد الرحمة ممن يظهر له الشكوى إن حدث له من مخبئات الدهر مالا يخطر على قلبه، كما يفهم من قوله.

---

(١) البخلاء- تحقيق الحاجرى - ص ٨ ومابعدها.

ولعل من أدق أوجه «حرمان النفس» من التمتع بالمال: ما يصور به «الكندى» خوف صاحب المال على ماله من «نفسه».

إذ يبدى صاحب المال فى شقاء وتعاسة به بعد شقائه فى جمعه وتحصيله، ويجعل من «ذاته» أشد خطراً على ماله من اللصوص، وأعدى عليه من الغاصبين، إذ ما فكر فى إنفاق شئ منه، ففي ذلك إتلافه وضياعه، إذ يقول : [١]«... إنما المال لمن حفظه، وإنما الغنى لمن تمسك به، ولحفظ المال : بنيت الحيطان، وغلقت الأبواب، واتخذت الصناديق، وعملت الأقفال، ونقشت الرشوم [٢]، والخواتيم، وتعلم الحساب والكتاب، فلم يتخذون هذه الوقايات دون المال، وأنتم آفته، وأنتم سوسه وقادحه.

ثم يكشف عن مدى خطورة الإنسان نفسه أو صاحب المال علي ماله، وتوجس الشر من صاحبه عليه أكثر من عدوه، فيقول :« .. احرس أخاك إلا من نفسه، ولكن احسب أنك قد أخذته- المال -فى الجواسق [٣]، وأودعته الصخور، ولم يشعر به صديق ولا رسول ولا معين، من لك بألا تكون اشد عليه من السارق، وأعدى عليه من الغاصب؟ واجعلك قد حصنته من كل يد لا تملكه، كيف لك من أن تحصنه من اليد التى تملكه، وهى عليه أقدر ودواعيها أكثر ؟ وقد علمنا أن حفظ المال أشد من جمعه، وهل أتى الناس إلا من أنفسهم وثقاتهم؟، فالمال لمن حفظه، والحسرة لمن أتلفه، وإنفاقه هو : إتلافه، وإن حسنتموه بهذا الاسم، وزينتموه بهذا اللقب : الانفاق».

---

(١) المصدر السابق ص ٩١.

(٢) الرشم : الطابع، أو ما يتخذ على الخاتم من الوشم والخطوط ليختم بها على الحبوب وغيرها.

(٣) الجواسق : الحصون.

وفى الواقع أننا لا نجد غرابة أو ما يدعو إليها فى قول «الكندى» وأمثاله، ممن غشى المال على أبصارهم، وأعمى بصيرتهم عن رؤية الخير لأنفسهم، وأثروا الحرمان لذواتهم مع فيض نعم الله عليهم، حتى بدوا وكأنما ليس لأحدهم حق الإنفاق منه، أو التمتع بما يجلبه لهم من طيبات الحياة، بعد أن أضحى المال هو صاحب الحق عليهم في وجوب حمايته من أنفسهم أولا حتى لو آمنوا كل الخلائق عليه، حيث لا يؤتى الناس إلا من أنفسهم وثقاتهم كما يقولون.

وهكذا نجد أن حب المال، وفلسفة الحرص عليه والحرمان منه – للغير وللنفس– قد أودى بالكندى، كما أودى بأمثاله من رواد هذا المذهب إلى أحط مدارك حرمان النفس، وأبعد آفاق التعاسة والشقاء بما جمعوا، وحصلوا وأحبوا فى دنياهم.

وهاهم أولاء وقد تأكد لنا أن أموالهم هذه كانت محصلة غفلتهم عن الرحمة وارتضائهم الحياة فى ظلمات الجحود للخير والحرمان لأنفسهم وللآخرين.

لقد أغفلهم منهجهم المشوه عن منهج الحياة السوى الذى دبره خالق الأحياء ولم يدركوا أنه ما جرت الأحداث أبداً فى غير مجرياتها، وما قدر لها الاستمرار أو التوقف إلا بأمر صانعها سبحانه.

ومن هنا، فما نظن الغاية من فلسفتهم في الجمع، والحرمان، إلا ضرباً من ضعف الإيمان، إذ لا يأمن الفقر، ولا يضمن دوام الغنى إلا من رقت عقيدته أو تصدعت دعامات دينه.

فضعف الإيمان فى نظرنا يكمن فيه سر تقديسهم للمال، وهوانهم على أنفسهم وعلى غيرهم من أجله.

وهو فى النهاية : مفتاح شخصياتهم بكل ما احتوته من صفات، وما اكتسبته من خلال، وما طبعت عليه من عادات، وما آمنت به من سلوك أو ارتضته من منهج ومعاملات ينأى عن مماثلتها المعتدلون وذوو الفطر السليمة في كل أمة أو مجتمع على مدى الزمان.

دكتور

حلمى حسن أبو العز

ثبت المراجع

* القرآن الكريم.
١- ابن الرومى - حياته من شعره - لعباس العقاد- الطبعة السادسة.
٢- أمير المؤمنين «عمر بن الخطاب» لابن الجوزى - تحقيق النشرتى وفرغلى وعبد الحميد مصطفى - مطابع الأهرام ١٩٩٤.
٣- البخلاء - لأبى عمرو الجاحظ - تحقيق طه الحاجرى- بدون.
٤- البخلاء - لأبى عمرو الجاحظ - تقديم د/ عباس عبد الساتر - طبعة دار الهلال بيروت ١٩٨٥.
٥- الحياة العربية من الشعر الجاهلى - د. أحمد الحرفى- الطبعة الخامسة دار نهضة مصر.
٦- ديوان أبى العتاهية - دار صادر بيروت ١٩٨٠.
٧- ديوان الحطيئة - تحقيق نعمان طه طبعة الحلبى ١٩٥٨.
٨- ديوان عروة بن الورد- طبعة بيرت - بدون.
٩- طبقات فحول الشعراء - لابن سلام الجمحى - تحقيق محمود شاكر - مطبعة المدنى- القاهرة.
١٠- العقد الفريد- لابن عبد ربه - دار الكتب العلمية - بيروت.
١١- العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده«لابن رشيق القيروانى» تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد - بيروت ١٩٧٤.
١٢- عيون الأخبار- لابن قتيبة- دار الكتاب العربى- بيروت.

١٣- معجم البلدان - لياقوت الحموى - دار إحياء التراث العربى - بيروت.

١٤- معجم الشعراء - للمرزبانى - تحقيق المستشرق - د. سالم الكرنكوى.

١٥- المفضليات - شرح التبريزى - تحقيق على البجاوى - الفحالة ١٩٧٧.

١٦- يتيمة الدهر- لأبى منصور الثعالبى - تحقيق د/ إيليا حاوى - الطبعة الأولى بيروت ١٩٧١.